" الألوان أصلها - دلالاتها - آثارها "
وموقف الفلاسفة والمتكلمين منها

إعـــــــداد

دكتـــــورة
منى إبراهيم إسماعيل أبو شادى

الأستاذ المساعد بقسم العقيدة والفلسفة
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله القائل فى محكم كتابه : (ومن آياتـه خلـق السـموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فـى ذلـك لآيـات للعـالمين)[1] والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين على اختلاف أجناسـهم وألسنتهم وألوانهم القائل فى سنته المطهرة : "لا فضل لعربى على أعجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أسود ولا أسود علـى أحمـر إلا بالتقوى)[2] صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلـى أن يقوم الناس لرب العالمين.

وبعـد

فما لا مراء فيه أن الإنسان مفطور على التأثر بمـا يقـع عليـه بصره من ألوان . وما هذا إلا لمـا للألـوان مـن مـردودات وجدانيـة وانطباعات شعورية . ومن ثم نجد أن بعض الناس يتفـاءل بـهذا اللـون ويتشاءم بذاك. ولامراء أيضا فى أن الألوان على اختلافها منها ما يدفـع إلى الانقباض كما أن منها ما يثير الانبساط. وكثيرا ما تكون هذه الألـوان وسيلة إيضاح وبيان وذلك عندما تحيـل الأمـور المجـردة إلـى أمـور محسوسة. والألوان تثير الانتباه وتلفت الأنظار إلى هذا الخلـق المحكـم الدقيق فيتمكن الإيمان فى القلوب وتستقر العقيدة فى النفوس. وصـدق الله العظيم القائل: (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا بـه ثمـرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلـف ألوانـها وغرابيـب

---

(١) الآية (٢٢) من سورة الروم.

(٢) الحديث بتمامه فى مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤١١/٥ ، وورد فى سنن أبى داود ٣٤٣/٥ حديث رقم ٥١٢١ بلفظ آخر.

سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور).[1]

هذا بالإضافة إلى أن الألوان من الجماليات المحسوسة بحاسة البصر وحول الألوان تدور أبحاث كثيرة يتناولها "علم الجمال" وهو فرع من فروع الفلسفة العامة. وقد ظل كذلك حتى انفصل عنها وصارت له فلسفته الخاصة ، وذلك حين تبلورت موضوعاته ، وأضحى ذا أهمية لدى الكثيرين من الباحثين والدارسين.

وقد استقلت فلسفة الجمال فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر . ووضح ذلك الفيلسوف الألمانى باومجارتن Baumgartem عندما عرف هذا الفن باسم الاستطيقا Aesthetics وحدد موضوعه فى تلك الدراسات التى تدور حول منطق الشعور والخيال الفنى وهو منطق يختلف كل الاختلاف عن منطق العلم والتفكير العقلى. ومنذ ذلك التاريخ تقريبا صار لعلم الجمال مجاله المستقل عن مجال المعرفة النظرية وعن مجال السلوك الخلقى. ولقد سار فى تأكيد هذا الاتجاه أيضا الفيلسوف الألمانى كانت kant حيث ذهب إلى القول بأن الخبرة الجمالية لا ترجع إلى النشاط النظرى الذى يقوم به الذهن والذى يحدد شروط المعرفة فى علوم الرياضة والفيزياء، كما لا ترجع إلى النشاط العملى الذى يحدد السلوك الخلقى المعتمد على الإرادة ولكنه يرجع إلى الشعور باللذة الذى يستند على اللعب الحر بين الخيال والذهن. لكن هذا لا يعنى أن مشكلات علم الجمال لم تدرس قبل ذلك التاريخ، فالتفكير الفلسفى الذى عنى بتعريف الجمال والفنون الجميلة كان موجودا منذ عصر سقراط وما قبله فى اليونان. وتعنى فلسفة الجمال بنظريات الفلاسفة وآرائهم فى إحساس

---

(١) الآيتان (٢٧ ، ٢٨) من سورة فاطر.

الإنسان بالجمال وحكمه به وإبداعه فى الفنون الجميلة ، كما تعنى بتفسير القيم الجمالية.(١)

لما تقدم كان اختيارى لموضوع "الألوان أصلها – دلالاتها – آثارها وموقف الفلاسفة والمتكلمين منها".

وسوف يكون تناولى لهذا الموضوع على النحو التالى:

الحواس فى القرآن الكريم.

الإدراك الحسى فى القرآن الكريم.

الإحساس بالألوان.

سيكولوجية الألوان على الإنسان.

دلالات الألوان.

الألوان فى القرآن الكريم.

الألوان فى السنة النبوية المطهرة.

الفلاسفة والألوان.

المتكلمون والألوان.

من فلسفة الألوان والجمال عند الإمام الغزالى.

أثر البيئة فى اختلاف الألوان.

موقف الإسلام من التفاؤل والتشاؤم.

واسأل الله العلى القدير أن يوفقنى فيما أنا بصدده وأن يجعله عملا خالصا لوجهه الكريم.

إنه نعم المولى ونعم النصير.

---

(١) أنظر : مقدمة فى علم الجمال وفلسفة الفن للدكتورة أميرة مطر ص ٩.

الحواس فى القرآن الكريم :

لا شك فى أن الطفل يولد ولا يعلم شيئا. ثم سرعان ما يلبث أن تبدأ حواسه فى أداء وظيفتها فيتأثر الطفل بما يتعرض له من مؤثرات خارجية تحدث فيه إحساسات مختلفة تكون هى الأساس الذى يتكون منه فيما بعد إدراكه ومعرفته بالعالم الخارجى.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة فى كثير من الآيات نذكر على سبيل المثال لا الحصر.

قول الحق - تبارك وتعالى :- (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعملون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون).[١]

وقوله - عز وجل - : (وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون).[٢]

وقوله - جل شأنه -: (ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون).[٣]

ونرى هنا أن القرآن الكريم اكتفى بذكر السمع والبصر بإعتبارهما أهم أداتين من أدوات الإحساس وذلك لعدة اعتبارات منها:

١- أهميتها القصوى فى عملية الإدراك الحسى.

٢- أن فى ذكرهما ما يكفى للدلالة على أهمية جميع الحواس فى عملية الإدراك الحسى.

---

(١)الآية (٧٨) من سورة النحل.

(٢)الآية (٧٨) من سورة المؤمنون.

(٣)الآية (٩) من سورة السجدة.

وهذه خاصية من خصائص أسلوب القرآن الكريم الـــذى يتمـيز بالإيجاز البليغ والذى يكتفى بالتلميح والإشارة إلى الحقائق الأساسية العامة ويتغاضى عن التفصيلات إذا لم يكن لذكرها ضرورة.*

وقد قدم القرآن الكريم السمع على البصر لأمور كثيرة أهمها مـــا يلى:

أولا: أن السمع أهم من البصر فى عملية الإدراك الحسى والتعلم وتحصيل العلوم فمن الممكن إذا فقد الإنسان بصره أن يتعلم اللغة ويحصـــل العلوم، ولكنه إذا فقد سمعه تعذر عليه تعلم اللغة وتحصيل العلـوم. ومما يدل على أهمية السمع فى الإدراك وفى تعلم اللغة – وهـــى من أهم أدوات التفكير وتحصيل العلوم – أن القرآن الكريم ذكـــره وحده مع العقل للدلالة على العلاقة الوثيقة بينه وبين العقل.(١)

قال – تعالى – : (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل مـــا كنـــا فـــى أصحـــاب السعير)(٢) ونظرا للعلاقة الوثيقة بين السمع والعقل فإن القـــرآن الكريـــم يذكر فى كثير من الآيات السمع بمعنى الفهم والتدبر والتعقـــل. وســـوف نورد بعضا من ذلك.

قال – تبارك وتعالى – : (ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمـان أن آمنوا بربكم فآمنا)(٣).

---

* وقد ذكر القرآن الكريم "الأفئدة باعتبارها هى التى تتلقى الإحساسات عن كل من الســـمع والبصـــر، وتقوم بترجمتها إلى دلالاتها المختلفة بدقة وتفصيل. فالأفئدة ضرورية لترجمة ما يأتى من إحســـاس عن السمع والبصر. وبدونها لا يكون ثمة فائدة ولا معنى لما يقوم به السمع والبصر.

(١) أنظر : القرآن وعلم النفس للدكتور محمد عثمان ص ١٢٥ وما بعدها.

(٢) الآية (١٠) من سورة الملك.

(٣) من الآية (١٩٣) من سورة آل عمران.

قوله – عز وجل –: (واذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين).[١]

٣- قوله – عز وجل – : (وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به).[٢]

ثانيا: أن حاسة السمع تعمل عقب الولادة مباشرة حيث يستطيع الوليد أن يسمع الأصوات عقب ولادته مباشرة، بينما يحتاج الوليد إلى فترة من الزمن لكى يستطيع رؤية الأشياء بوضوح.*

ثالثا: أن حاسة السمع تؤدى وظيفتها باستمرار دون توقف. هذا فى حين أن حاسة البصر قد تتوقف عن أداء وظيفتها إذا أغمض الإنسان عينه أو إذا نام. إلا أن الصوت الشديد من شأنه أن يوقظ الإنسان من نومه. لذا ذكر القرآن الكريم فى قصة أهل الكهف أنه ضرب على آذانهم حتى يستغرقوا فى النوم فلا يوقظهم صوت.[٣]

قال – تعالى – : (فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا).[٤]

رابعا: أن حاسة السمع تسمع فى كل الأوقات سواء فى الضوء أو فى الظلام بينما حاسة البصر لا ترى إلا فى الضوء وبالتالى لا يكون للألوان وجود إلا مع الضوء.

---

(١) الآية (٨٣) من سورة المائدة.

(٢) من الآية (١٣) من سورة الجن.

* لقد بينت البحوث الفسيولوجية الحديثة أن الطفل حديث الولادة يستجيب للأصوات العالية، لكنه لا يستجيب للأصوات الخافتة الضعيفة . كما بينت هذه البحوث أن الصور لا تبدو فى عينى الطفل حديث الولادة واضحة جلية حتى الشهر السادس ، لأن نمو التكوين الشبكى لا يتم إلا فى نهاية الشهور الستة الأولى بعد الولادة.

(٣) انظر: القرآن وعلم النفس ص ١٢٦ ومابعدها.

(٤) الآية (١١) من سورة الكهف.

خامسا: أن حاسة السمع تجمع الأصوات من كافة الاتجاهات. بينما البصر لا يرى إلا ما يواجه الإنسان من أمام.

ولقد ذكر السمع فى القرآن الكريم مفردا. أما الأبصار فقد ذكرت فى معظم الآيات بصيغة الجمع ، وذلك من أدلة الإعجاز فى أسلوب القرآن حيث أن حاسة السمع تستقبل الأصوات الصادرة من جميع الجهات، بينما العين لا ترى إلا اذا اتجه الانسان ببصره نحو الشئ الذى يريد أن يراه.[1] وإذا حدث صوت فى مكان يجتمع فيه جمع من الناس فإنهم جميعا يسمعون نفس الصوت تقريبا، بينما هم يرون الشئ الواحد من زوايا مختلفة ، وبذلك لاتكون رؤيتهم للشئ الواحد متماثلة تماما. كما أنهم قد يرون فى نفس الوقت أشياء مختلفة تبعا للجهة التى ينظرون إليها. وفضلا عن ذلك فنحن إذا سمعنا صوتا صادرا من مكان يقع أمامنا مباشرة، فإن الموجات الصوتية تصل إلى الأذنين فى وقت واحد، كما أن شدة تأثيرها على طلبتى الأذنين يكون متماثلا. أما إذا نظرنا إلى شئ ما موضوع أمامنا فإن الصورة التى تنطبع على شبكة العين اليمنى تختلف عن الصورة التى تنطبع على شبكية العين اليسرى. فالعين اليمنى ترى الشئ من جانبه الأيمن، بينما ترى العين اليسرى الشئ من جانبه الأيسر.[2]

الخداع البصرى :

الخداع البصرى هو ادراك بصرى خاطئ لا ينطبق على حقيقة الشئ المرئى. وهناك بعض أنواع من الخداعات البصريه العامة بين الناس جميعا، فهم يدركونها جميعا بطريقة متشابهة. ومن أمثلة ذلك

---

(١) انظر: القرآن وإعجازه العلمى لمحمد إسماعيل ابراهيم ص ١٠٧ وما بعدها.

(٢) انظر: القرآن وعلم النفس ص ١٢٨.

ظاهرة السراب* وذلك حينما يرى الناس عن مسافة بعيدة سرابا فيظنونه ماء. وقد ذكر القرآن الكريم السراب فى تصويره البليغ لعدم جدوى ما يقوم به الكافرون من أعمال حسنة إذ ستكون يوم القيامة هباء منثورا كالسراب الذى يظنه الظمآن ماء حتى إذا وصل إليه لم يجده شيئا.

قال - تعالى - مصورا ذلك : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب).[1]

الإدراك الحسى فى القرآن الكريم:

بما أننا نتحدث عن الألوان بإعتبارها من المدركات الحسية فسوف نتحدث بإيجاز عن الإدراك الحسى فى القرآن الكريم.

لقد زود الحق - تبارك وتعالى - الإنسان والحيوان بكل ما من شأنه أن يكفل لهما الحياة والبقاء هذا بالإضافة إلى الدوافع والانفعالات.

---

* ظاهرة السراب: توجد فى حياة الإنسان مواقف كثيرة حيث يحدث الخطأ فى الإدراك تحت تأثير الحاجة الملحة أى الحافز القوى، أو شدة الانفعال ، أو تحت ظروف ضاغطة عنيفة. مثال ذلك المسافر فى الصحراء الذى جف حلقه من شدة الظمأ ، وقاسى من شدة الحرارة ، فازدادت حاجته الملحة إلى الماء وتجنب القيظ، وكاد يقترب من حافة اليأس، إنه يتوهم وجود بركة من الماء على بعد، فيلهث مسرعا نحوها لعلة يطفئ غلته ويروى عطشه ، ولكنه يجد سرابا وكأن الماء تحول إلى رمال . ويساعد على هذا أن السراب - فى الواقع - ظاهرة طبيعية تحدث فى الصحراء وقت اشتداد الحر، ترى فيها المرئيات البعيدة كما لو كانت منعكسة عن سطح ماء. ويتحكم فى هذا ظاهرة "الانعكاس الكلى" فى الطبيعة، التى تبدو حينما تزداد درجة حرارة طبقات الهواء وقت الهجير فتقل كثافتها كلما اقتربنا من الأرض ، فتعكس الطبقات السفلى من الهواء من الهواء الأشعة الصادرة من الأجسام البعيدة (كالنخيل مثلا) انعكاسا كليا كما لو كانت سطح مرآة أو سطح ماء. وبالتالى تظهر صور لتلك الأجسام تحتها تخدع المسافر ، إذ يخيل إليه أنها لم تظهر إلا لكونها قريبة من سطح ماء. وتدفعه حاله الظمأ عنده على أن يتجه إليها ظنا منه أنها ماء وملهى بماء.

انظر: علم النفس المعاصر للدكتور حلمى المليجى ص ١٠٨.

[1] الآية (٣٩) من سورة النور.

كما زودهما بأجهزة يدركان بها العالم الخارجي وما يدور فيه من أحداث كما يدركان بها أيضا العالم الداخلي وما يحدث فيه من تغيرات. وللإدراك الحسي وظيفة هامة يدرك بها الكائن الحي مايؤذيه فيتجنبه ، وما يفيده فيسعى إليه.

والإنسان يستطيع عن طريق الحواس الظاهرة وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس إدراك العالم الخارجي. كما يستطيع عن طريق الإحساس الداخلي إدراك ما يحدث في بدنه من اختلال في الاتزان العضوي والكميائي كالجوع والعطش.

هذا ومع أن الإدراك الحسي وظيفة يشترك فيها كل من الإنسان والحيوان. إلا أن الحق - عز وجل - قد خص وميز الإنسان بوظيفة إدراكية ونعمة كبرى يتميز بها عن سائر المخلوقات ، وهي العقل فعن طريقه يستطيع الإنسان أن يعلو ويسمو بإدراكه عن الأشياء المحسوسة فيفكر في المعاني المجرده كالخير والشر والفضيلة والرذيلة والحق الباطل... الخ

وعن طريق العقل أيضا يستطيع الإنسان التعرف على ربه وخالقه - سبحانه وتعالى - إلا أن قدره العقل البشري على الإدراك محدودة وتفكير الإنسان معرض للخطأ، لأنه قد تطرأ ظروف ما تعوق الإنسان عن التفكير السليم ومن ثم يصبح الإنسان محتاجا إلى من يرشده ويبين له طريق الحق من الضلال لذا كان من فضل الله ونعمته على خلقه أن أرسل لهم الأنبياء والرسل - عليهم السلام - والكتب لكي يرشدهم إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة.

يقول الحق - تبارك وتعالى - : (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعملون).[1]

فالحواس والعقل وسيلتان يستعين بهما الإنسان في الإدراك والمعرفة إلا أنهما لا يكفيان وحدهما للوصول إلى المعرفة اليقينية. فالإنسان لا يستطيع بعقله أو بحسه معرفة الأمور الغيبية. فالطريق للمعرفة يكون عن طريق الحق - سبحانه وتعالى - وعن طريق الأنبياء والرسل - عليهم السلام - وعن طريق الكتب السماوية.

الاحساس بالألوان * :

الضوء الأبيض يتكون من مجموعة من الألوان المندمج بعضها ببعض تتدرج من اللون الأحمر إلى اللون البنفسجي. "وقد دلت التجربة على أنه يمكن إحداث الإحساس بأى لون من هذه الألوان أو اللون الأبيض بخلط ثلاثة الألوان أساسية بنسب مختلفة ، هذه الألوان هي الأحمر والأزرق والأخضر. ويرجع إدراك الألوان بوجه عام إلى أن العصب البصرى يتكون من ثلاث مجموعات من الأعصاب ينتج عن تأثر أى منها الإحساس بأحد الألوان الأساسية ، فإذا تعرضت العين لضوء أحمر مثلا فإن مجموعة واحدة تتأثر بهذا الضوء وينتج من تأثرها الإحساس باللون الأحمر، كذلك إذا استقبلت العين ضوءا أخضر فإن مجموعة أخرى واحدة تتأثر بهذا الضوء ، وعلى وجه العموم إذا وقع على العين، ضوء ذو لون معين فإن نوعا أو أكثر من هذه المجموعات

---

(١) الآية (١٥١) من سورة البقرة.

* الإحساس بالألوان يرجع إلى عوامل داخلية فى جسم الإنسان وتركيب أجهزة الإحساس فيه ، وأخرى خارجية كمقدار الضوء المنعكس إلى العين وطول موجته وزاويته ولونه.

يتأثر به، فالضوء الأصفر (٥٩٠٠ انجشتروم)** مثلا ينتج عنه تأثر مجموعة الأعصاب الحساسة للون الأحمر والمجموعة للون الأخضر . والضوء الأزرق (٤٧٠٠ انجشتروم) ينتج عند تأثر مجموعة الأعصاب الحساسة للون الأخضر والمجموعة الحساسة للون الأزرق . أما إذا استقبلت العين ضوءا أبيض فإن المجموعات الثلاث تتأثر بدرجة واحدة. ومن الجدير بالذكر أن مقدار إحساس العين يختلف باختلاف لون الأشعة الذى يبين العلاقة بين الإحساس والطول الموجى أو اللون بالنسبة لعين مثالية".[1]

هذا وعن طريق البصر تدرك الأشكال والألوان. والألوان التى تدركها العين كثيرة، حتى قال البعض إنها تبلغ مليون أو أكثر". وبالرغم من كثرتها فإننا نرجعها إلى أجناس أصلية ، ونفرق بينها بحسب نوعها، ودرجة اشباعها ووضوحها ويمكننا أن نبين ذلك بالشكل التالى. لنتصور مثمنا مجسما ، ولتكن الألوان الأصلية (الأبيض والأخضر والأسود والأحمر والأصفر والأزرق) موزعة على سطحه. ولتكن لهذه الألوان التى على سطح المثمن أعظم درجة من الإشباع، فكلما تقربت من المركز قلت درجة الإشباع، حتى تنتهى إلى الرمادى. وليكن وضوح الألوان تابعا للمحور العمودى المار بالأسود والأبيض، فالأسود أكثر الألوان قتامة، والأبيض أكثرها وضوحا. إن ترتيب الألوان على هذه الصورة الوهمية يوضح لنا مرض (الدالتونيزم)*** وهو مرض الألوان****.

** الانجشتروم: وحدة قياس طول.

[1] كتاب الضوء للدكتورة أمينة محمد عبد الرحيم ص ١٥٢ وما بعدها.

*** مرض الدالتونيزم نسبة إلى العالم الانجليزى دالتون Dalton.

**** مرض الألوان أو بمعنى أدق عمى الألوان وينشأ هذا العيب بسبب فقد الإحساسات الأساسية بعضها أو كلها لإدراك اللون. فإذا فقدت العين الإحساس للون الأحمر مثلا فإنه يصبح من

فالمصاب بهذا المرض يخطئ فى رؤية بعض الألوان ، فلا يفرق مثلا بين الأحمر والأخضر، يرى الأحمر أسود ، والأخضر رماديا واضحا. ولتوضيح ذلك على الشكل المرسوم. فالمصاب بمرض الدالتونيزم لا يرى من الألوان إلا ما هو على السطح العمودى المحدود بالأبيض والأزرق والأسود والأصفر"[1]

هذا وأحيانا ما تخطئ الحواس وخطأ الحواس خطأ فى التأويل أى فى الحكم والاستدلال ولنذكر مثالا على ذلك عند النظر إلى العصا المغموسة فى الماء فترى مكسورة ، ثم بالتجربة والعقل تعلم أنها مستقيمة. وخطأ الحواس يرجع إلى ثلاثة أسباب:

١-حالة الحواس: إذا كانت الحاسة مريضة تبدل الإحساس بحسب حالة المرض كما فى (الدالتونيزم).

٢-طبيعة الوسط الفاصل بيننا وبين الأشياء ، فأخطاء الضوء ناشئة عن هذا السبب.

٣- تأثير الصورة فى الإحساس، وعلى الأخص تأثير الذاكرة والحكم والانتباه، حتى لقد قيل إن حواسنا لا تخدعنا، وأننا لا نخطئ إلا فى تأويل ما ترسمه الحواس على صفحات نفوسنا. [1]

المعتذر عليها تمييز هذا اللون.وبديهى أن العين المصابة بعمى اللون الأحمر لا تستطيع التمييز بين اللونين الأحمر والأخضر وخاصة إذا كان اللونان داكنين، وذلك لأن الأول يؤثر على مجموعتين من الأعصاب أحدهما حساسة للون الأخضر والأخرى غير حساسة، والثانى يؤثر على مجموعة واحدة من الأعصاب حساسة للون الأخضر. وإذا كان الإحساس باللون الأزرق مفقودا، فإنه من المتعذر على العين التمييز بين اللونين الأزرق والأصفر، أما إذا كانت الإحساسات الثلاثة مفقودة فإنه يتعذر تمييز الألوان بعضها عن بعض . انظر : كتاب الضوء للدكتورة أمينة محمد عبد الرحيم ص ١٥٤.

[1] علم النفس للدكتور جميل صليبا ص ٣٢٧ وما بعدها.

[1] انظر: المرجع السابق ص ٣٧٥ وما بعدها.

سيكولوجية الألوان على الإنسان :

للألوان تأثير كبير على الإنسان فأحيانا يشعر الإنسان بالفرح أو الحزن أو غيرهما عند رؤية لون من الألوان فمثلا اللون الأخضر الفاتح يدعو لاسترخاء وهدوء الأعصاب. ولذا فإنه يستخدم فى العادة فى طلاء جدران المستشفيات والعيادات التى يحتاج فيها المريض إلى قسط من راحة الأعصاب والهدوء. أما اللون الرصاصى الفاتح فيوحى بالعمل والنشاط والحركة ولذا ينصح بطلائه فى المكاتب وأماكن العمل.[1]

هذا ولا تقتصر أهمية الألوان على مجرد زيادة النشاط الذهنى وما يستتبعه من نشاط ثقافى أو اقتصادى بل يتعدى دورها إلى التأثير على الجانب الفسيولوجى للإنسان. فمثلا اللون البرتقالى يساعد على زيادة الافرازات المعدية المهضمة، مما يساعد على فتح الشهية للطعام إلى حد كبير. ولذلك يفضل استعماله داخل المطاعم من أجل الكسب المالى والتجارى. ويمثل هذا اللون من الناحية الموضوعية النار وغروب الشمس التى تشع منها هدوء التأثيرات السيكولوجية المعبرة عن التأجج والاحتدام المشتعل ، وهى تلك التأثيرات المحثة المنبضة ، فى حين أن اللون الأزرق الفاتح يذكرنا بالسماء والبحر ويوحى سيكولوجيا بالهدوء والسكينة.

يقول الدكتور يحيى حمودة : "تؤثر الألوان على النفس فتحدث فيها إحساسات ينتج عنها اهتزازات بعضها يوحى بأفكار تريحنا وتطمئنا، والأخرى تضطرب منها. وهكذا تستطيع الألوان أن تهبك الفرح والمرح أو الحزن والكآبة ".[2]

---

[1] انظر : تاريخ الفن فلسفة الفن والوعى الجمالى للدكتورة راوية عباس ص ٢٩٨.

[2] نظرية اللون للدكتور يحيى حمودة نقلا عن : المرجع السابق ص ٢٩٩.

هذا ولاشك فى أن اللون الأصفر والأسود والأزرق يمثل تحديا للإنسان ، فالأصفر للصحراء، والأسود لفعل السوء ، والأزرق للخوف من العاقبة . بينما يمثل اللون الأخضر والأبيض والأحمر هدف الإنسان وغايته فى الزراعة وفعل الخير والتوجه نحو الطبيعة وتشييد العمران.

تأثير اللون الأصفر :

يرى علماء النفس أن انطباع اللون الأصفر أقل من تأثير أى لون آخر، لأنه لون هادى ومع أن لون الشمس يعد أصفر إلا أنه يختلف عن اللون الأصفر العادى لأنه يصل إلينا عبر مسافات طويلة فيصبح باردا هادئا . ولذا فيكون تأثيره على نفسية الإنسان تأثيرا هادئا بخلاف أى لون آخر .

يقول الدكتور سمير شيخانى : " اللون الأصفر لا يختلف عن لون ضوء الشمس إلا بأن هذا اللون الأخير يصل إلينا باردا، لأنه يقطع السموات الزرقاء . وعلى هذا يكون رد الفعل النفسانى للون الأصفر أقل إيجابية من رد الفعل نفسه للونين الأحمر أو الأزرق ، أى أن هذين اللونين الأخيرين هما أشد تأثيرا فى النفوس من اللون الأصفر. إلا أن هذا لا يعنى أن اللون الأصفر سهل الاستعمال . فأقل اهمال فى استخدامه يفسد النتائج المتوخاة منه ، بينما لا يؤثر فى شىء أى تغيير يطرأ على اللون الأحمر مثلا " .[1]

تأثير اللون الأحمر :

يعد اللون الأحمر لونا عالميا يحبه جميع الناس خصوصا من اتصفوا بالإرادة القوية والجسارة ، وهو لون مثير يسترعى انتباه الجميع بما فيهم المثقفين وغيرهم من الرجال والنساء ويلقى قبولا عندهم ويحوز

---

[1] علم النفس فى حياتنا اليومية ص ١٣٤ ومابعدها .

على إعجاب الجميع. ويشعرون بالارتياح عند وقوع بصرهم عليه. أما كراهية البعض لهذا اللون فمرجعها إلى حوادث مزعجة مرت ببعض الناس فى الصغر.

يقول الدكتور سمير شيخانى : " اللون الأحمر من بين الألوان جميعا ، هو اللون المثير الذى يسترعى انتباه الجميع ويحوز إعجابهم . وقد دعى بحق " اللون العالمى " فالأطفال وشعوب العصور الأولى ، والرجال والنساء المثقفون منهم وغير المثقفين ، كلهم على السواء يشعرون بارتياح عظيم لدى وقوع بصرهم على اللون الأحمر . أما كره هذا اللون فيعود إلى أسباب سيكولوجية ، أهمها حوادث مزعجة مفزعة مرت بالمرء فى عهد الطفولة للون الأحمر علاقة وثيقة بها . وهذا اللون لا يوافق مزاج الأشخاص المرهفى الحس، الشديدى التأثر، لكنه جزيل النفع لذوى النفوس الكئيبة التى يغلب عليها العبوس والسويداء. واللون الأحمر يستخدم فى شفاء الاضطرابات العقلية "[1].

تأثير اللون الأخضر :

يرى علماء النفس أن هذا اللون لون أصحاب النفوس المرهفة الحس ، الذين يفضلون الحركة والنشاط ، ويتسموا بالدقة فى كل شىء .

يقول الدكتور سمير شيخانى : "هذا اللون لون الفنانين على اختلافهم ولون ذوى النفوس المرهفة الحس . وهؤلاء الأشخاص يفضلون الحياة المتقلبة الدائمة الحركة والنشاط على الحياة الهادئة التى تسيرعلى وتيرة واحدة . أما الدقة فهى أبرز خصالهم وبخاصة الدقة فى كل عمل يأتونه ، وهم يسيرون إلى تحقيق غاياتهم بخطى وئيدة ولكنها ثابتة كفيلة بأن

---

[1] علم النفس فى حياتنا اليومية ص ١٣٣ .

توصلهم إلى هدفهم المنشود.وفضلا عن هذا فهم يعرفون كيف يحـــافظون على شبابهم حتى سن متأخرة"[1]

تأثير اللون الأزرق :

هذا اللون أكثر الألوان فتورا بل من أقلها إيجابيـــة ، وأصحابـــه يصفون بالكآبة والكمد.يقول الدكتور سمير شيخانى: "اللـــون الأزرق مـــن أفتر الألوان، بل أقلها إيجابية، ويستخدم للتخفيف من حدة حالات الـــهياج والتأثر التى تصيب بعض النفوس . فهو من هذه الجهة مسكن من الطـواز الأول ، إلا أن هذا لا يمنع أن يكون للون الأزرق تأثير سلبى علـــى ذوى الأمزجة السوداوية الذين تغلب عليهم الكآبة والكمـــد . فعلـــى هـــؤلاء أن يتخلصوا من كل ما هو أزرق ، ويحيطوا أنفسهم بكل ما هو أحمر ."[2]

تأثير اللون الأبيض :

هذا اللون يميل إليه الأشخاص المتقلبين فى آرائهم . ويفضله مـــن يفتقر إلى قوة الملاحظة والبديهة .

يقول الدكتور سمير شيخانى : " يعجب هذا اللون الأشخاص المتقلبين فـــى آرائهم ، والذين لا يستقرون على حال من الأحوال . والأبيض هو اللـــون الذى يستحسنه أولئك الذين يفتقرون إلى قوة الملاحظـــة والبديهـــة وروح الانتقاد ".[3]

ولسنا مع هذا الرأى لأن اللون الأبيض أصل الألوان وهـــو يعـــد وصفا لأهل الجنة ، كما أنه يرتبط بالطهارة والنقاء والنظافة ... ... إلخ .

---

[1] المرجع السابق ص١٣٨.

[2] المرجع السابق ص ١٣٥ .

[3] المرجع السابق ص ١٣٧

تأثير اللون الأسود :

هذا اللون يفضله المتشائمون ، وهو يرتبط بالموت والخوف والحزن وفقد البصر والوقار أحيانا .

يقول الدكتور سمير شيخانى :"يفضل هذا اللون المتشائمون على ماعداه من الألوان.

ومن الصعب معرفة ما إذا كان هؤلاء يلبسون الثياب السوداء لفرط حزنهم وتشاؤمهم، أو لأن الحزن والتشاؤم هما نتيجة ارتدائهم الملابس القاتمة اللون ".[1]

هذا وللون ارتباط وثيق بالجانب الانفعالى والوجدانى . وقد تقدر الاستجابة على أنها استجابة لونية إذا تأثر الفرد بصورة مباشرة وإيجابية بصبغة اللون أعنى (اللون الأحمر والأخضر والأزرق والأصفر) وهى الألوان الأربعة فى البطاقات ، ولا يكفى أن يكون الجزء الكبير ملونا حتى نقدر الاستجابة على أنها استجابة لونية بل يجب أن تتضمن الاستجابة شىء يشير إلى تأثر الفرد باللون .

ومعظم استجابات اللون يثيرها اللون الأحمر غالبا مثل دم ، ولكن هناك استجابات أخرى تثيرها بقية الألوان مثل سماء أو ماء بالنسبة للون الأزرق . زهرة بالنسبة للأصفر . حشيش بالنسبة للأخضر .

وعند تقدير الاستجابة اللونية يلتزم أن تعرف إذا كان المفحوص مدرك أو غير مدرك للون وهل تأثر به أم لا ؟

هذا ولقد قسم رورشاخ استجابات اللون إلى ثلاثة أقسام رئيسية :-

١-إذا كان العامل المحدد لون خالص مثل "دم" لأنه أحمر قدرت الاستجابة بأنها لون خالص ويرمز بالرمز G أو ل .

---

[1] المرجع السابق

٢-إذا كان عامل اللون يغلب على عامل الشكل قدرت الاستجابة على أنها G F أو ل ش.

٣-إذا كان عامل الشكل غلب على عامل اللون قدرت الاستجابة على أنها F G أو ش ل.

وليس من الصعب تحديد استجابة اللون الخالص فالخبرة والتجربة يساعدان على ذلك .ولكن المشكلة فى التفرقة بين ل ، ل ش ، وبين ل ش - ش ل .

ولقد اتخذ رورشاخ معيارا للتمييز بين استجابات ل ش، ش ل.وهو حدة إدراك المفحوص لاستجابات الشكل الخالصة فإذا كانت حدة إدراك الشكل فى الاستجابة اللونية أضعف قدرت الاستجابة فى هذه الحالة على أنها ل ش وليست ش ل وذلك لغلبة عامل اللون على الشكل وضعف عامل الشكل عندما دخل معه عامل اللون .

وذهب رور شاخ الىأن الأنواع الثلاثة من الاستجابات اللونية تمثل درجات ثلاثة من الانفعالية فكلما ضعف عنصر الشكل قوى جانب الانفعال بالعكس . وقد اقترح رورشاخ قيما عددية لهذه الأنواع الثلاثة من الاستجابات اللونية فأعطى استجابة اللون الخالص ل درجة ونصف واستجابة اللون المتغلب على الشكل ل ش درجة ، أما استجابات الشكل الذى يتغلب على اللون ش ل تعطى نصف درجة[1] .

[1] انظر : القياس الإسقاطى للدكتورة هناء أبو شهبه ص ١٩٨ وما بعدها .

اللون والوجدان :

للألوان عند الناس مـــردودات عاطفيـــة ووجدانيـــة وانطباعـــات شعورية ، وتختلف رمزية الألوان من شعب لآخر وأظهر مثال على هـــذا الاختلاف - أن اللون الأبيض يرمز للقدرة والقوة والسلطة كما فـــى "يـــد بيضاء " إشارة إلى معجزة من معجزات سيدنا موسى - عليه الســـلام - كما أن كلمة "قلب أبيض " فى اللهجة العامية تعنى شخصا طيبـــا لطيـــف المعشر. و"الراية البيضاء " تعنى السمعة الطيبة . وفى مصر يشبه اليـــوم الجميل باللبن أو الوردة البيضاء .

لكن تختلف هذه المعانى من مكان لآخر فاللون الأبيض يســـتخدم دلالة على الحزن والحداد كما فى الشرق الأقصى وأوروبـــا . فـــالموت شاحب واللون الأبيض مضاد لحمرة الحياة، والكفـــن أبيـــض ، والشـــعر الأبيض نذير الموت ، وكذلك الحال فى أسبانيا ومراكش وشـــرق فـــارس يعد اللون الأبيض لون حداد .

كذلك يختلف الحال بالنسبة للون الأسود عند العرب فاللون الأسود لون ذو هيمنة وله سحره الذى خلب لبهم مع شعور بالخوف والخشـــية . فاللون الأسود والظلمة والليل والسر كلها أمور تقتضى منـــهم التوقـــير . وحجر الكعبة الأسود يعد من الأعمدة ذات الأثر الروحى . واللون الأســود هو رداء " الرحلة المجهولة " والحداد وكل ضروب الحزن ، وهو أيضـــا رمز مشترك للانتقام والتمرد(علم العباسيين الأســـود) .ويســـتخدم اللـــون الأسود كتميمة ضد "العين الشريرة" ويخلعون على القطة الســـوداء قـــوة سحرية هائلة . والغراب الأسود عند المســـلمين وعنـــد شـــعوب أخـــرى

نذيرشؤم ،وسلاسل جهنم سوداء ، والسحابة السوداء علامة على غضب الله ، وقابيل قتل هابيل بصخرة سوداء.(١)

دلالات الألوان :

للألوان فى حياة الإنسان دلالات معينة وضعها لكى تعبر عن مصطلحات يتعارف عليها الناس فيما بينهم . فنرى مثلا ألوانا معينة أو علامات إرشادية توضع فى الشوارع تسمى بـ " إشارات المرور" وهذه الإشارات لها دلالة خاصة يعرفها المتعاملون بها فى هذا المجال . فمثلا اللون الأحمر له دلالة الخطر والتوقف ، واللون الأصفر يعنى الاستعداد للسير، واللون الأخضر يعنى زوال الخطر واستئناف السير .

وبما أننا نتحدث عن الدلالة فلابد أن نعرفها عند المناطقة .

يقول المناطقة : " الدلالة كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر".(٢)

فالمراد من قوله (العلم به) التفات الذهن إلى الدال. وقوله (العلم بشيء آخر) أى المدلول .

وللدلالة تعريف آخر هو: " كون أمر بحيث يفهم منه أمر آخر".(٣)

---

(١)انظر: موجز دائرة المعارف الإسلامية ٨٨٧٢/٢٨ وما بعدها .

(٢) شرح الرسالة الشمسية لنجم الدين القزوينى القسم الأول ص٢٢ ، وشرح الخبيصى على متن تهذيب المنطق ص ١٠ ، وشرح ايساغوجى فى علم المنطق لزكريا الأنصارى ص ٢٧ وما بعدها، المنطق المنظم فى شرح الملوى على السلم لعبد المتعال الصعيدى القسم الأول ص ٢٤.

(٣) انظر حاشية الباجورى علىالسلم للشيخ إبراهيم البيجورى ص ٤٠ ، المرشد السليم فى المنطق الحديث والقديم للدكتورعوض الله حجازى ص ٣٧.

والمراد (بالأمر الأول) الدال ، والأمر الثـــانى المدلـــول فمثـــلا إشارة المرور الحمراء دال ، والمدلول هو المعنى المفهوم منها وهـــو أن الطريق خطر فلا يمكن العبور أو السير .

والفرق بين التعريفين أن التعريف الأول يسمى دالا ســـــواء فـــهم منـــه المدلول بالفعل أولا. هذا بخلاف التعريف الثانى فإن الشئ فيه لا يســـمى دالا إلا إذا فهم منه المدلول بالفعل. فالتعريف الأول عام والثانى خاص.

هذا ولقد اعتبر المناطقة دلالات الألوان من الـــدلالات الوضعيـــة غير اللفظية، وذلك لأنهم قسموا الدلالة باعتبار اللفظ إلى قســـمين دلالـــة لفظية* ، ودلالة غير لفظية.**

وكل منهما إلى ثلاث أقسام وبذا يكون مجموع الدلالات سته أقسام:

١- دلالة لفظية وضعية كدلالة لفظ أسد على الحيوان المفترس ودلالـــة لفظ الشمس على الكوكب المضئ.

٢- دلالة لفظية طبيعية كدلالة لفظ التأوه على الألم ، وأهلا وسهلا علـــى الترحيب.

٣- دلالة لفظية عقلية كدلالة الصوت على حياة صاحبه.

٤-دلالة غير لفظية وضعية كدلالة إشارة المرور الحمراء على الخطـــر والخضراء على زواله.

٥-دلالة غير لفظية طبيعية كدلالة حمرة الوجه على الخجل وصفرته على الوجل.

---

* الدلالة اللفظية: هى ما كان الدال فيها لفظا كدلالة لفظ الإنسان على الحيوان الناطق، ودلالـــة لفـــظ الجامعة على ذلك البناء المعد لتلقى العلم على مستوى معين.

** الدلالة غير اللفظية: هى ما كان الدال فيها أمرا غير لفظ لكن يفهم منه أمر آخر مثل دلالة حمـــرة الوجه على الخجل واصفراره على الخوف.

٦-دلالة غير لفظية عقلية كدلالة الأثر على المؤثر والصنعة على الصانع.(١)

والمعتبر من هذه الأقسام الستة لدى المناطقة هى الدلالة اللفظية الوضعية*** ولكنهم ذكروا باقى الأقسام استكمالا للتقسيم والذى يهمنا هنا من هذا التقسيم هو الدلالة غير اللفظية الوضعية التى منها دلالات بعض الألوان لمفهوم معين يتعارف عليه الناس فيما بينهم.

معانى بعض دلالات الألوان :

ترتبط الألوان بمعان فى العقل الباطن نتيجة خبرات *** البعض منها موروث والبعض الآخر مكتسب من الحياة، ولذا توجد للألوان دلالات عامة أثبتتها التجارب والاختبارات السيكولوجية وهى كالتالى:

---

(١) انظر: المنطق المنظم فى شرح الملوى لعبد المتعال الصعيدى القسم الأول ص٢٤.

*** الأسباب التى دعت المناطقه إلى الاقتصار على الدلالة اللفظية الوضعية دون غيرها عدة نقاط منها :-

١- أن البحث عن الألفاظ إنما هم من حيث دلالتها على معانيها الوضعيه فلذا كان الاحتياج إليها.

٢- أن الدلالة اللفظية الوضعية تنضبط بخلاف الدلالة الطبيعية والعقلية (لفظية أو غير لفظية) فإنهما لا ينضبطان نظرا لأن الطبائع تختلف وكذلك العقول تتفاوت.

٣- أنها تعم جميع الأشخاص والأوقات بخلاف الدلالة الوضعية غير اللفظية فإنه لا يمكن التفاهم بها مع جميع الأشخاص كالأعمى مثلا.

٤- أنها أيسر الدلالات من حيث إن الإنسان لا يحتاج لشئ سوى معرفته بأن هذا اللفظ وضع لهذا الماصدق وهذا سهل وميسور .

انظر: المرشد السليم فى المنطق الحديث والقديم للدكتور عوض الله حجازى ص ٣٨.

*** يرى البعض أن تأثير اللون يرجع إلى الارتباط فالأحمر والأصفر من الألوان الدافئة، لأنها ترتبط بالشمس والنار والحرارة، والأخضر مهدئ لأنه يذكر سكان المدن بالريف والمزارع. إلا أن التجارب تدل على أن أثر اللون لا يرجع دائما إلى الارتباط لأنها تؤثر فينا مباشرة، وقد ثبت هذا الرأى من خلال التجارب على الأطفال فى سن شهور والحيوانات وعلى بعض الأشخاص الذين شفوا من الكتاركت - وظهر تأثرهم بالألوان - فمثلا الأميبيا Amoeba تنفر من الأزرق والأبيض ولكنها لا تنفر من الأحمر. فإذا صح أن الاستجابة للألوان فى هذه الكائنات موجودة فلا شك أن للألوان بذاتها بغير ارتباط تأثيرا معينا عند الإنسان ، وقد قام العالم الفرنسى Fere بتجارب على - أثر الألوان على

١- **اللون الأسود:** يرتبط بالموت والخوف والحزن وفقد البصر والوقار أحيانا.

٢- **اللون الأبيض:** يرتبط بالطهارة والنقاء والنظافة والجليد والبرودة.

٣- **اللون الأحمر:** يرتبط بالحريق واللهب والحرارة والدفء أو الخطر أو الدماء أو القتل، لذا فهو مثير للأعصاب وغير محبب للكثيرين فى المنازل، كما أنه يرمز إلى الغموض والتنبيه للطوارئ، ولكن إذ خلط باللون الأبيض وأصبح ورديا أو "بمبى" يعد لونا مريحا يدل على الرقة والذوق الرفيع.

٤- **اللون الأخضر:** يربط بالحقول والحدائق والأشجار التى تلعب دورا هاما فى هدوء الأعصاب، لذا يستعمل فى طلاء حجرات المستشفيات والمصحات ، كما أنه يرتبط بمعنى النعيم والجنة، ويرمز إلى الوضوح والصراحة.

٥- **اللون الأصفر:** يرتبط بالشمس والضوء ، لذا استخدمه قدماء المصريين رمزا لإله الشمس "رع" ، ونظرا لاعتقادهم أن الشمس

الإنسان باستعمال آلات لقياس ضغط اليد Hand Grips بتأثير بعض الألوان فوجد أن القياس العادى هو ٢٣ وأن الأخضر يسبب ٢٤ والأصفر ٢٨ والبرتقالى ٣٥ والأحمر ٤٢ وانتهى إلى أن الألوان تؤثر على الجهاز العضلى والدورة الدموية . ويقدر تأثر الأطفال ببعض الألوان بواسطة قياس مدة تعلق بصرهم بالألوان المختلفة.

وتبين أن الأطفال أكثر تعلقا بالألوان الفاتحة مثل الأصفر والأبيض ثم يزداد التعلق بألوان أخرى مع التقدم فى السن فيدخل الأحمر من سن ٤ - ٩ ثم الأزرق ويفضل أبناء الريف الأخضر ، ثم تبدأ عن طريق التجارب الفروق التفصيلية للألوان بين البنات والأولاد باختلاف البيئة . فأهل المناطق الحارة والجنوبية أميل إلى الألوان القاتمة وأهل الشمال أميل إلى الألوان الباهتة. ثم تدخل الارتباطات العامة والخاصة فقد يكره الإنسان لونا معينا لأسباب خاصة كأن يكون لون الملابس التى يلبسها شخص يكرهه، أو يحب لونا لأنه يذكره بشئ محبوب له ، كذلك ترتبط الألوان بالإحساسات الأخرى كما نقول ألوان باردة وألوان ساخنة .. وترتبط بالثقل أو الخفة.

انظر : مقدمة فى علم الجمال وفلسفة الفن للدكتورة أميرة مطر ص ٦٨ وما بعدها.

هى حافظة الحياة والصحة على الأرض، كما أنه يرمز إلى المجازفة والمخاطرة والتحذير.

٦- **اللون الأزرق:** يرتبط بالسماء والماء فى الطبيعة، فهو لون مناسب للهدوء وبرودة الليل ، والجمع بين الأزرق والأخضر يمثل أقصى درجات البرودة.(١)

الألوان فى القرآن الكريم :

لقد ورد ذكر "اللون" فى القرآن الكريم تسع مرات، منها ستة عامة وثلاثة خاصة، مما يدل على أن اللون له دلالة فى عمومه أكثر مما له دلالة فى خصوصه. فاللون يدل على التنوع والتعدد والتباين والاختلاف. وقبل هذا وذاك يدل على قدرة الخالق – عز وجل-. لذلك ذكر اللون بصيغة الجمع سبع مرات، ومفردا مرتين. فالجمع أكثر دلالة على التنوع من المفرد: فاللون الواحد والشكل الواحد والرأى الواحد مستحيل فى الحياة البشرية. فالطبيعة بما فيها ومن فيها مختلفة ومتباينة تشمل الإنسان والحيوان والنبات والجماد.

يقول الحق – سبحانه وتعالى – : (وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون).(٢)

ويقول – عز وجل – فى شأن اختلاف ألوان النبات والثمار : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها).(٣)

ويقول – جل وعلا – : (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس).(١)

---

(١) انظر : تأثيث وتنسيق المنزل للدكتور بدر الدين مصطفى ص ٦٤ وما بعدها.

(٢) الآية (١٣) من سورة النحل.

(٣) من الآية (٢٧) من سورة فاطر.

(١) من الآية (٦٩) من سورة النحل.

ويقول – عز من قائل –: (ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك).[٢]

يقول الله – تعالى– : (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين).[٣] فالناس تختلف ألوان بشرتها وألسنتها. فاختلاف لون البشرة يختلف تبعا لقرب السكان من الشمس أو بعدهم عنها. أما اختلاف الألسنة فراجع إلى اختلاف الأصوات ونشأة اللغات فى أماكن متعددة.

أما دلالة اللون الخاصة فوظيفتها تحديد الشئ. فاللون عامل مساعد على الرؤية والتحديد والاختيار. فالبقر مثلا يتحدد نوعه بالألوان. يقول الحق – سبحانه وتعالى – : (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين).[٤]

واللون قد يكون باهتا فلا يؤدى وظيفته فى الإدراك كعامل مساعد وقد يكون فاقعا يسر الناظرين كما يقول – تعالى – : (إنها بقرة صفراء فاقع لونها).[٥] فاللون الفاقع أفضل من اللون الباهت فى تحديد الشئ.

مما تقدم نجد أن لفظ "اللون" أو جمعه "ألوان" لا يرتبط بشئ من الصفات أو الذات الإلهية كما هو الشأن لدى اليهود فهو لا يتعدى نطاق الكائنات سواء أكانت سماوية أو كائنات أرضية أو ظواهر طبيعية فى عمومها وخصوصها.

وقد استخدمت الألوان المحددة كالأبيض والأحمر والأزرق والأصفر فى مجالات الوصف الواقعى لما هو كائن، أو فى مجالات

---

(٢) من الآية (٢٨) من سورة فاطر.

(٣) الآية (٢٢) من سورة الروم.

(٤) الآية (٦٩) من سورة البقرة.

(٥) من الآية (٦٩) من سورة البقرة.

الوصف لما سيكون من أمور الآخرة وقضايا الثواب والعقاب والجنة والنار. وعلى ضوء ذلك فلسفة استخدام الألوان فى الإسلام كما جاء فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - هو تحديد الموصوف وتعيين هويته وملامحه كما هو فى الواقع بالنسبة للمحسوس، وتقريب المفهوم وتجسيده خاصة إذا تعلق الأمر بما لا يقع تحت إطار الحس أو ما يخرج عن نطاق الحياة الدنيا.[1]

ويجب هنا أن ننبه إلى أن الفكرة الأساسية فى الإسلام بالنسبة للآخرة - وبخاصة فيما يتعلق بالجنة ومتعها - هى أنه إذا عبر عنها بالألفاظ أو الأسماء التى درجنا على استعمالها فينبغى أن نضع نصب أعيننا أن التشابه إنما يكون فى الأسماء فقط. أما المسميات فلا يمكن أن تتشابه مع ما فى الدنيا، لأن رسولنا الكريم - صلى الله عليه وسلم - قال عن ربه - عز وجل - فى شأن الجنة فيها : "ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر"[2]

ويقتضى هذا أنه حتى فى مجال الألوان لا تتشابه الألوان فى الدنيا مع الألوان فى الآخرة.

ويقول الإمام الجليل ابن عباس - رضى الله عنه - "ليس فى الدنيا من الآخرة إلا الأسماء".[3]

---

[1] انظر: رمزية الألوان بين الأديان للدكتور كمال جعفر ص ٢٨٢ بحث فى حولية كلية الشريعة بجامعة قطر عام ١٩٨٥م.

[2] أخرجه البخارى فى كتاب التفسير ٣٧١/٧ حديث رقم ٤١٣٩ ، وأخرجه ابن ماجة فى سننه باب صفة الجنة ٥٨٩/٢.

[3] أورده البخارى فى الجنة.

وهنا يرد تساؤل مؤداه: إذا لم يكن هناك تناظر بين ألوان الدنيا والألوان فى الآخرة فلم اتصفت بها مع أنها لا تنقل الصورة الحقيقية لما فى الآخرة ؟

وتكمن الإجابة فى أن الحكمة فى ذلك ترجع إلى :

أ- مراعاة أقصى الطاقة البشرية للتصور من تشبيه محسوس بمحسوس أو محسوس بمعقول ... إلخ. كما فى علم البلاغة لتقريب مفهوم الأشياء إلى الأذهان.

ب- مراعاة استخدام الانطباع العام لمثل هذه الألوان على النفس البشرية وهذا هو المراد.

كما ينبغى أن نشير إلى أنه لا يفهم من ذلك أن الألوان فى الآخرة ليست حقيقية ، بل يجب أن يفهم أن الألوان فى الآخرة هى الألوان الحقيقية التى تثير الإمتاع فى الجنة والهلع والإحساس بالألم فى النار.

ولتوضيح ذلك نقول : إذا قيل مثلا إن كأس الشراب فى الجنة بيضاء فلا ينبغى أن يفهم من هذا البياض المعهود الذى يماثل مثلا بياض القطن أو الجبس ، بل هو بياض من نوع مخصوص لا تفى بوصفه عبارة ، لكن كلمة "بيضاء" ما زالت تؤدى الهدف والغاية من إثارة الرغبة والميل والارتياح إلى النقاء والصفاء والطهارة وهذا هو المقصود.

ورود لفظ اللون والألوان فى القرآن الكريم :

أولا : اللون الأصفر :

وردت كلمة "لون" مفردة فى سورة البقرة محددة لونا معينا هو "الأصفر" فى قوله – تعالى – : (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين).[1] وهنا نرى الدقة القرآنية فى استقصاء حقيقة اللون، فمن المعروف أن للون الأصفر درجات كثيرة. لذا نجد أن القرآن الكريم حدد ذلك بقوله: (فاقع لونها) وقد يظن أن اللون الأصفر يرتبط عموما بالضعف والشحوب والهزال... لكن القرآن الكريم هنا نفى هذا الظن بقوله (تسر الناظرين) ومن المعلوم أن الناظر إليها يسر بما تظهر عليه الحيوية والنضارة والصحة والنعمة. "والسرور حالة نفسانية تعرض عند حصول اعتقاد أو علم أو ظن بحصول شئ لذيذ أو نافع".[2]

وأننا نجد أن القرآن الكريم استرسل بعد ذلك فى أوصاف أخرى لهذه البقرة نتيجة لتشدد بنى إسرائيل فى محاولة تنفيذ أمر نبيهم موسى – عليه السلام – فشدد الله عليهم.

والآية الكريمة هنا يدل اللون الأصفر فيها على لون شعر البقرة التى أمرهم بها سيدنا موسى – عليه السلام – بأن يأخذوا منها عضوا فيضربوا به القتيل فيحيا بإذن الله وينطق باسم قاتله.[3]

ولقد ذكر اللون الأصفر فى مواطن عديدة من القرآن الكريم منها:

---

(١) الآية (٦٩) من سورة البقرة.

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازى م ١ – ج٣ – ص ٥٤٨.

(٣) انظر : مفاتيح الغيب م١ – ج٣ – ص٥٤٤.

١-قوله - تعالى - : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب).[١]

فالآية تعني أن الله - سبحانه وتعالى - : "أنزل من السماء ماء، فأجراه في ينابيع وعيون في الأرض ، ثم يخرج به زرعا مختلفا أشكاله، ثم ييبس بعد نضارته فتراه مصفرا، ثم يجعله فتاتا متكسرا، إن في ذلك التنقل من حال إلى حال لتذكير أولى العقول المنيرة".[٢]

والملاحظ هنا أن الصفرة تدل على تمام نضج الزرع كما أنها تدل على الجفاف.

ويقول الفخر الرازي في تفسير هذه الآية : "أنه - تعالى- لما وصف الآخرة بصفات توجب الرغبة العظيمة لأولى الألباب فيها وصف الدنيا بصفة توجب اشتداد النفرة عنها ، وذلك أنه - تعالى - بين أنه أنزل من السماء ماء وهو المطر وقيل كل ما كان في الأرض فهو من السماء، ثم إنه - تعالى - ينزله إلى بعض المواضع ثم يقسمه فيسلكه ينابيع في الأرض، أي فيدخله وينظمه ينابيع في الأرض عيونا، ومسالك ومجاري كالعروق في الأجسام، يخرج به زرعا مختلفا ألوانه من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك ، أو مختلفا أصنافه من بر وشعير وسمسم ثم يهيج ، وذلك لأنه إذا تم جفافه جاز له أن ينفصل عن منابته، وإن لم تتفرق أجزاؤه، فتلك الأجزاء كأنها هاجت لأن تتفرق ثم يصير حطاما يابسا (إن في ذلك لذكرى) يعني أن من شاهد هذه الأحوال في النبات علم أن أحوال الحيوان والإنسان كذلك وأنه وإن طال عمره فلا بد له من

---

(١) الآية (٢١) سورة الزمر.

(٢) المنتخب في تفسير القرآن الكريم ص٦٨٦.

الانتهاء إلى أن يصير مصفر اللون متحطم الأعضاء والأجزاء ، ثم تكون عاقبته الموت. فإذا كانت مشاهدة هذه الأحوال فى النبات تذكره حصول مثل هذه الأحوال فى نفسه وفى حياته، فحينئذ تعظم نفرته فى الدنيا وطيباتها". [١]

٢-قوله - تعالى - : (اعملوا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما). [٢]

والصفرة هنا تدل على تمام النضج الذى يعقبه الجفاف

٣-قوله - عز وجل - : (ترمى بشرر كالقصر. وكأنه جمالت صفر). [٣]

فالحق - سبحانه وتعالى - "شبه الشرر فى العظم بالقصر ، وفى اللون والكثرة والتتابع وسرعة الحركة بالجمالات الصفر ". [٤] وجاء فى المنتخب أن : "النار ترمى بما تطاير منها كالقصر فى العظم، كأن الشرر جمال سود تضرب إلى الصفرة، هلاك يومئذ للمكذبين بأن هذه صفتها". [٥]

٤-قوله - سبحانه وتعالى - : (ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون). [٦]

فاللون الأصفر يدل على مجرد النعمة والكفر بالله.

---

(١) المرجع السابق م ٩ - ج ٢٦ - ص ٤٣٩ وما بعدها.

(٢) من الآية (٢٠) من سورة الحديد.

(٣) من الآية (٣٢) والآية (٣٣) من سورة المرسلات.

(٤) مفاتيح الغيب م ١٠ / ج ٣٠ - ص ٧٧٥.

(٥) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ص ٨٧٥.

(٦) الآية (٥١) من سورة الروم.

جاء فى المنتخب أن الله – سبحانه وتعالى –: (أقسم لئن أرسلنا ريحا مضرة بالنبات، فرأوه مصفرا بسببها، لصادرا من معد اصفراره يحجدون النعمة ويكفرون بالله). (١)

من هنا نرى أن للون الأصفر دلالات مختلفة متنوعة فتارة تدل تمام النضج بالنسبة للنبات الذى يعقبه بعد ذلك الجفاف ، وتارة أخرى يدل على النضارة والصحة، وتارة يكون إشارة إلى لون شعر البقر وكذلك الجمال.

ثانيا: اللون الأحمر :

قال – تعالى – : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال * جدد بيض وحمر ألوانها وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور).(٢)

هذه الآيات تدل على قدرة الله وكماله فى خلق الأشياء المتنوعة المختلفة عن الشئ الواحد وهو الماء ينزله من السماء فيخرج به ثمرات مختلف ألوانها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض إلى غير ذلك من ألوان الثمار كما هو مشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها ، ومن الجبال

---

(١) المنتخب ص ٦٠٩

* ليس الإعجاز العلمى فى هذه الآية الكريمة هو التنويه فقط بما للجبال من ألوان مختلفة ترجع إلى اختلاف المواد التى تتألف منها صخورها من حديد يجعل اللون السائد أحمر أو منجنيز أو فحم يجعله أسود أو نحاس يجعله أخضر وغير ذلك. ولكن الإعجاز هو الربط بين إخراج ثمرات مختلفات الألوان يروى شجرها ماء واحد، وخلق جبال حمر وبيض وسود يرجع أصلها إلى مادة واحدة متجانسة التركيب أصل معينها من باطن الأرض. ويسميها علماء الجيولوجيا بالصهارة والمجاجما، وهذه الصهارة الواحدة عندما تنبثق فى أماكن مختلفة من الأرض وعلى أعماق مختلفة من السطح يعترى تركيبها الاختلاف فتتصلب آخر الأمر فى كتل أو جبال مختلفات المادة والألوان. وهكذا فسنة الله واحدة لأن الأصل واحدة والفروع مختلفة متباينة وفى هذا متاع وفائدة لبنى الإنسان.

(٢) الآيتان (٢٧، ٢٨) من سورة فاطر.

خلق الأبيض والأحمر وفى بعضها طرائق مختلفة الألوان كذلك.ومنها غرابيب سود. "قال ابن عباس – رضى الله عنها – الجدد هى الطرائق. وقال أيضا: الغرابيب هو الجبال الطوال السود. قال ابن جرير: العرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد قالوا: أسود غربيب.

وقوله – تعالى – : (ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك) أى كذلك الحيوانات والناس والدواب والأنعام مختلف ألوانها. فالناس منهم بربر وحبوش فى غاية السواد، وصقالبة وروم فى غاية البياض والعرب بين ذلك، والهنود دون ذلك ، وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى فى الجنس الواحد، بل النوع الواحد منهم مختلف الألوان، بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون ومن هذا اللون فتبارك الله أحسن الخالقين.

عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : جاء رجل إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – فقال: أيصبغ ربك ؟ قال – صلى الله عليه وسلم – : "نعم صبغا لا ينقص أحمر وأصفر وأبيض" [1] ولهذا قال -تعالى – : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) أى إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به سبحانه وتعالى.[2]

هذا ولقد ذكر اللون الأحمر فى السنة النبوية المطهرة يقول البخارى فى صحيحه حدثنا شعبة عن أبى إسحاق سمع البراء – رضى الله عنه – يقول كان النبى – صلى الله عليه وسلم – مربوعا وقد رأيته فى حلة حمراء ما رأيت شيئا أحسن منه".

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٥٧١ وعزاه للحافظ البزار.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣ / ٥٧١.

وقد نهى الرسول – صلى الله عليه وسلم – عن المياثر الحمر عن البراء – رضى الله عنه – عن البراء – رضى الله عنه – قال أمرنا النبى – صلى الله عليه وسلم – بسبع عيادة المريض واتباع الجنائز وتشميت العاطس ونهانا عن لبس الحرير والديباج والقس والاستبرق ومياثر الحمر.(١)

هذا ولقد توسع صاحب كتاب فتح البارى بشرح صحيح البخارى فى معنى المياثر الحمر: "أبو عبيد: المياثر الحمر التى جاء النهى عنها كانت من مراكب العجم من ديباج وحرير. وقال الطبرى : هى وعاء يوضع على سرج الفرس، أو رجل البعير من الأرجوان. وحكى فى "المشارق" قولا أنها: سروج من ديباج، وقولا أنها أغشية للسروج من حرير، وقولا أنها: تشبه المخدة تحشى بقطن أو ريش يجعلها الراكب تحته فالنهى فيها كالنهى عن الجلوس على الحرير". (٢)

من هنا نجد أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم- قد نهى عن الحرير لا سيما إذا كان مصبوغا بحمرة أو كان فى صورة وسادة أو سرج.

ثالثا: اللون الأخضر :

ورد اللون الأخضر فى مواضع كثيرة نذكر منها :-

١-قوله – تعالى – : (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان متشتبها

(١) المرجع السابق كتاب اللباس باب المثيرة الحمراء.

(٢) فتح البارى باب المثيرة الحمراء ١٠ / ٣٠٧.

وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن ذلكم لآيات لقوم يؤمنون)[1]

٢-قوله – عز وجل - : (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون)[2]

٣-قوله – سبحانه وتعالى- : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة).[3]

فى هذه الآيات الكريمات ذكر للون الأخضر وهو هنا مرتبط بالزرع والخصب والنماء والخير والبركة . وللزرع أهمية قصوى فى حياة الإنسان والحيوان. وهذا اللون يدل على الحياة والنماء والنضارة.

وللمفسرين رأيان حول قوله – تعالى : (الذى لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون).[4]

الرأى الأول: يذهب إلى أن الله خلق هذا الشجر من ماء حتى أخضر نضرا ذا ثمر وينع، ثم أعاده إلى أن صار حطبا يابسا توقد به النار. وعلى هذا الرأى يكون مناط العبرة هو الانتقال بالنبات من النضرة والخضرة – وهما قد يضادان قبول الإيقاد – إلى اليبس والحطبية، وهما يساعدان ويقبلان الاتقاد.

الرأى الثانى: يذهب إلى أن المراد بذلك شجر مخصوص هو شجر المرخ والعفار، وهو شجر ينبت فى أرض الحجاز فيأتى من أراد

---

[1] الآية (٩٩) من سورة الأنعام.

[2] الآية (٨٠) من سورة يس.

[3] من الآية (٦٣) من سورة الحج.

[4] الآية (٨٠) من سورة يس.

قدح نار – وليس معه زناد – فيأخذ منه عودين أخضرين ويقدح أحدهما بالآخر فتتولد النار بينهما كالزناد سواء. [1]

ونرجح الرأى الثانى لأن فيه يبرز التناقص بين الطراوه والخضرة وبين اشتعال النار. وليس هذا غريبا فأننا نقرأ ونشاهد حرائق الغابات حيث تبدو بعض الأشجار وكان بها نفطا أو بترولا رهيبا يؤجج النار ويسعرها.

والخضرة بصفة عامة كما هو فى الواقع الحياتى ترتبط باللخصب والنماء والخير والبركة وكثيرا ما تأتى فى الأحلام وتفسر على هذا النحو من ذلك ما سجله القرآن الكريم عن حلم فرعون – ذلك الحلم الذى كان نذيرا بأهوال كبيرة –والذى لم يتعدى مرتبه أضغاث الأحلام فى نظر الكهنة والعرافين ، إلا أنه كان يحمل رمزية معينة معبرة فهمها وأولها يوسف الصديق عليه السلام – أفضل تأويل .

يقول الحق – تبارك وتعالى – : (وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ياأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون. قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين).[2]

وقد كان تأويل سيدنا يوسف عليه السلام لهذا الحلم الذى رآه فرعون أنه رمز فيه بالسنابل السبع الخضر للسنوات الخصبة التى ينمو فيها المحصول ويعم الخير. كما رمز بالسنابل اليابسة الجافة لسنوات الجدب الشديدة وهذه هى رمزية النبات. أما الرمزية فى الحيوان فقد جعل السمنة رمزا للخصب والهزال رمزا للجدب ، وهكذا كانت البقرات

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣ / ١٠.

(٢) الآيتان (٤٣ ، ٤٤) من سورة يوسف- عليه السلام -.

السمان إشارة إلى سنوات الخصب والخير، والبقرات العجاف إشارة إلى السنوات المجدبة.

يقول الحق – جل وعلا – مصورا تأويل – يوسف – عليه السلام – : "يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون . قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون. ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون".(١)

وعلى ضوء تأويل يوسف الصديق أمكن رسم الخطة الاقتصادية البارعة التي مكنت مصر من اجتياز هذه الأزمة التي كانت ستودي بأهل هذه المنطقة. لولا لطف الله ورحمته فيما منح يوسف – عليه السلام – من القدرة على الفهم والتأويل لرموز الأحلام.

لا شك في أن تفسير سيدنا يوسف – عليه السلام – لهذا الحلم وبناء الخطة الاقتصادية التي كان لها أثر كبير في اجتياز هذه الأزمة – سنوات الجذب – وحدوث ما توقعه تماما فيه رد حاسم ومفحم على هؤلاء الذين يعممون أحكامهم عندما يرون أن جميع الأحلام ما هي إلا استمرار لنشاط العقل الباطن، أو استئناف للنشاط اليومي، أو ربما هي ترجمة للرغبات * والأماني المكبوتة ، وليست لها أية دلالة تنبؤية أو إخبارية عن المستقبل.**

---

(١) الآيات (٤٦ ، ٤٨) من سورة يوسف – عليه السلام–.

* يرى فرويد مؤسس مدرسة التحليل النفسي: "أن الأحلام لا تتنبأ بالمستقبل، كما ترى النظريات التنبؤية بل أنها ظاهرة تكشف عن صراعات جنسية أو وجدانية يعانيها العالم في الوقت الحاضر، أو أنها تعبر عن رغبات مكبوته منذ الطفولة المبكرة. كما أن الحلم له وظيفة "حراسة النوم" = بمعنى معونة النائم على الاستمرار في نومه فيجنبه ما يحتمل أن يزعجه من منبهات خارجية، فكأن الحلم هو محاولة لاستبعاد ما يؤدي إلى اضطراب النوم ووسيلته في ذلك هو تحقيق رغبة لدى النائم أو ارضاء دوافعه ارضاء

أننا لا ننكر أن تكون بعض الأحلام حديثا نفسيا فى دائرة الحس الباطن أو ما تحت الشعور ، ولكننا نلاحظ أن مثل هذه الأحلام لا تكون لها فى الواقع دلالات أو تأثيرات نفسية عميقة كتلك الأحلام الأخرى التى تحمل رسالة أو مفهوما – أو بمعنى أدق الرؤيا الصادقة لأنها من الله –عز وجل–.

وهميا خياليا يعفى النائم من الاستيقاظ ، ومحاولة ارضائها فى الواقع" انظر: علم النفس المعاصر للدكتور حلمى المليجى ص ٢٧٠ وما بعدها، كواشف زيوف فى المذاهب الفكرية المعاصرة لعبد الرحمن حبنكة ص ٢٩٥.

** من النظريات التى وضعت لتفسير الأحلام "النظريات التنبؤية " ترى هذه النظريات أن الأحلام لها وظيفة تنبؤية أى أنها تتكهن بالغيب وما سيحدث مستقبلا من أمثلة ذلك حلم سيدنا يوسف –عليه السلام – بمعنى أدق رؤيا يوسف الصديق الذى رآه وهو صغير وقصة على أبيه وتحقق فيما بعد يقول – تعالى– : "إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال يابنى لا تقصص رؤياك على أخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين" الآيتان (٥،٤) من سورة يوسف – عليه السلام – . ثم توالت ومضت السنون حتى تبوأ يوسف الصديق مكانته الرفيعة عند فرعون مصر ، وقدم أخوته وأبويه إليه. فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه قال – تعالى – : "فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين. ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أمن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم" الآيتان (٩٩ ، ١٠٠) من سورة يوسف – عليه السلام –.

وهناك مثال آخر للأحلام التنبؤية وهو حلم "طارق بن زياد" القائد الإسلامى المعروف: حينما ركب "طارق بن زياد" متن السفينة فى طريقه إلى فتح الأندلس ، غالبه النعاس لحظة أثناء عبوره مضيق جبل طارق ، ثم رأى فى منامه حلما مثيرا. لقد رأى فى الحلم النبى– صلى الله عليه وسلم – ومعه المهاجرون والأنصار ، جميعهم مسلحين بالسيوف والرماح. قال النبى لطارق: "تقدم" ، وأمره أن يحسن معاملة المسلمين وأن يفى بوعوده ، ثم رأى طارق النبى وأصحابه به يدخلون الأندلس أمامه.

استيقظ طارق متنبئا بالانتصار الذى أعلنه لجنوده، فشد ذلك من أزرهم وقوى شجاعتهم وأصبح طارق لا يشك اطلاقا فى الانتصار .

وقد يتكهن الحلم بأخطار المستقبل ومساعيه، فكأنه يقوم بوظيفة تحذيرية حتى نحطاط من هذه المخاطر ونتيجتها. وأوضح الأمثلة على هذا النوع من الأحلام التحذيرية حلم فرعون مصر عن "البقرات السبع" كما وردنى القرآن الكريم وقد تقديم الحديث عنها.

يقول الدكتور حلمى المليجى: "يرى بعض علماء النفس أن التنبؤ فى مثل هذه الأحلام ليس تكهنا بالغيب بقدر ما هو ارتباط بين مقدمات ونتائج . أو أن تحقيق الحلم فى الواقع ما هو إلا نتيجة منطقية لأمر يتوقعه الحالم أو يرغب فيه "حلم طارق بن زياد" . مثال ذلك حينما يسعى المرء جاهدا إلى تحقيق مشروع معين أو يبتغى مركزا ما ، ثم يرى فى حلمه أن مشروعه اكتمل أو أنه حصل على مركز مرموق ، فإذا تحقق بالفعل ما رآه فى الحلم قد يتصور أن أحلامه تصدق فى التنبؤ بالمستقبل" انظر: علم النفس المعاصر ص٢٧٠.

وإذا كان القرآن الكريم قد عالج الألوان فى مختلف ظواهر الكون والكائنات حيث شمل الإنسان والحيوان والنبات والجماد وذلك فى نطاق عالم الشهادة ، فإنه عالج الألوان أيضا فى شتى مناحى عالم الغيب وبخاصة فيما يتصل بأحوال الجنة والنار وما ينتظر أهلهما من نعيم مقيم ويحل بهم من عذاب دائم.

هذا ومن الآيات التى تتحدث عن المؤمنين فى الجنة وما ينتظرهم من نعيم مقيم.

١-قول الحق - تبارك وتعالى- : (إن الذين أمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا. أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الآرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا)[١]

٢- قوله - عز وجل - : (متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان).[٢]

٣-قوله -- تعالى - : (عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا).[٣]

تتحدث الآيات السابقة عن أحوال المؤمنين فى الجنة من أنهم فى جنات إقامة ويلبسون ثيابا خضر من سندس واستبرق ومتكئون على وسائد خضر.

---

(١) الآيتان (٣٠ ، ٣١) من سورة الكهف.

(٢) الآية (٧٦) من سورة الرحمن.

(٣) الآية (٢١) من سورة الإنسان.

يقول ابن كثير : "متكئين على رفرف خضر ... يعنى الوسائد وهذا هو قول الحسن البصرى. وقال العلاء بن زيد : الرفرف على السرير كهيئة المحابس المتدلى . وقال ابن أبى بشر: الرفرف هو رياض من الجنة". (١)

رابعا: اللون الأزرق:

لقد ذكر اللون الأزرق مرة واحدة فى القرآن الكريم.

يقول الحق- تبارك وتعالى - مصورا حال المجرمين يوم القيامة- : (يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا).(٢)

يحشر الله – تعالى – المجرمين على هذه الصورة لكثرة أوزارهم فتكون حالتهم على هذا اللون من زرقة أجسادهم أو أعينهم.

يقول الطبرى: "ينفخ إسرافيل فى الصور ويحشر المشركين زرقا أى عميا وقال الأزهرى: عطاشا قد أزرقت أعينهم من شدة العطش ، وقاله الزجاج لأن سواد العين يتغير ويزرق من العطش. وقيل إنه الطمع الكاذب إذا تعقبته الخيبة، يقال ابيضت عينى لطول انتظارى لكذا. وقيل المراد بالزرقة شخوص البصر من شدة الخوف".(٣)

ويحتمل أن تشمل الزرقة سائر بدن المجرمين نتيجة لاحتباس الدم فى أجسامهم من هول ما يلاقونه من العذاب فتسود وجوههم بسبب أعمالهم. ولعل ذلك يتضح من خلال قوله – تعالى -- (زرقا) فلم يخصص العيون بالزرقة أو الأبدان وعلى ذلك يحتمل أن تكون زرقة العيون والوجوه.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٢٨٠.

(٢) الآية (١٠٢) من سورة طه.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١١ / ٢٥٩ وما بعدها.

ويؤكد ذلك ما ورد فى التفسير الوسيط للقرآن العظيم: "فيوم ينفخ إسرافيل فى البوق نفخة البعث من القبور حيث يقوم الناس لرب العالمين، ويسوق الله المجرمين يومئذ بعد البعث زرق الأجساد أو زرق العيون من أجل ما يحملونه من أوزار وخوفهم من محاسبة العليم القهار. قال الفراء زرقا أى عميا لأن العين إذا ذهب نورها أزرق ناظرها" [1]

ومن الملاحظ أنه بالمقارنة بين الجنة والنار من حيث الألوان نجد أن القرآن الكريم يولى الجنة عناية فائقة من حيث الإشارة الى ألوان ما فيها ومن فيها بصورة مفصلة تثير الشوق وتدفع إلى الحنين والتكريم. ويشمل ذلك الحور الحسان والثياب والكؤوس والولدان والفرس والوسائد والأشربة والقلائد كل ذلك يصاغ فى تعبير جمالى رائع يستحث خطى الإنسان ويشده إلى الاجتهاد والعمل والمثابرة للظفر بها فى الجنة بإذن الله – تعالى-.

فهناك جنتان "مدهامتان"[2] أى خضراوان اشتدت خضرتها حتى مالت إلى السواد من شدة الرى. ووصف القرآن الكريم لحور العين (كأنهن الياقوت والمرجان)[3] فى الصفاء والبياض. وكذلك يصفهن وصفا آخر فيقول: (وعندهم قاصرات الطرف عين. كأنهن بيض مكنون).[1]

يقول الفخر الرازى: "معنى هذا التشبيه أن ظاهر البيض بياض يشوبه قليل من الصفرة ، فإذا كان مكنونا كان مصونا عن الغبرة والقترة،

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن العظيم حزب ٣٢ ص ١٠٦٤.

(٢) الآية (٦٤) من سورة الرحمن.

(٣) الآية (٥٨) من سورة الرحمن.

(١) الآيتان (٤٨ ، ٤٩) من سورة الصافات .

فكان هذا اللون فى غاية الحسن والعرب كانوا يسمون النساء بيضات الخدورد) [1]

يقول ابن كثير: "كأنهن بيض مكنون. يعنى محصون لم تمسه الأيدى ، وقال السدى البيض فى عشه مكنون ، وقال سعيد بن جبير، يعنى بطن البيض، وقال عطاء الخرسانى هو السحاء الذى يكون بين قشرته العليا ولباب البيضة. وعن أم مسلمة -- رضى الله عنها- قلت يا رسول الله أخبرنى عن قوله الله - عز وجل - : (كأنهن بيض مكنون) قال: "رقتهن كرقة الجلدة التى رأسها فى داخل البيضة التى تلى القشر وهو الفرقى". وقال - صلى الله عليه وسلم- : "أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا حزنوا ، وأنا شفيعهم إذا حبسوا، لواء الحمد يومئذ بيدى ، وأنا أكرم ولد آدم على الله - عز وجل -- يطوف على ألف خادم كأنهن البيض المكنون - أو اللؤلؤ المكنون والله تعالى أعلم بالصواب" [2]هذا بالإضافة إلى الثياب السندس الخضر والاستبرق والوسائد إلخ.

أما الأشربة فتعرف ألوانها أحيانا بمجرد ذكر أسمائها ، وأحيانا أخرى ينص على لونها إذا كانت هناك شبهة واحتمال لمقارنتها بأشربة الدنيا. فبالنسبة للخمر مثلا تنعقد الصلة بينها وبين آثارها على العقل والصحة العامة فينفى عنها الغول والضرر (لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) [3] بل الحق - تبارك وتعالى - ينفى التشارك بينها وبين خمر

(١) مفتاح الغيب م ٩ -- ج ٢٦ -- ص ٢٣٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٧ .

(٣) الآية (٤٧) من سورة الصافات.

الدنيا حتى فى مجرد اللـــون إذ تكـــون خمـــر الآخـــرة (بيضـــاء لـــذة للشاربين)[1].

يقول ابن كثير : "أى لونها مشرق حسن بهى ، لا لا كخمر الدنيـــا فى منظرها البشع الردئ من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كـــدورة إلـــى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم". [2]

وتأمل هنا روعة التعبير فى قوله : (يطاف عليـــهم بكـــأس مـــن معين. بيضاء لذة للشاربين) [3] حيث يصلح الوصف بيضـــاء لكـــل مـــن الخمر والكأس وهذا يذكرنا بقول الشاعر:

رق الزجاج وراقت الخمر فتشابها وتشاكل الأمر

فكانما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

هذا مع الفارق الجوهرى الكبير ، وهو أنه لا تشـــابه ولا تشـــاكل ولا حيرة ، بل لذة متواصلة ونعيم مقيم.

وإذا كان أهل الجنة ذوى (وجوه مسفرة . ضاحكة مستبشرة)[4]

فإن أهل النار وجوههم باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة ، وإذا كانت الجنة قد زينت فى فرشها وحورها وشرابها وأوانيها ووجوه أهلها ، فـــإن النار قد تضرمت وتفاقم سعارها حتى : (إنها ترمى بشرر كالقصر. كأنـــه جمالت صفر)[5]

ويجب أن نشير هنا ونحن نتحدث عن الألوان فى القرآن الكريـــم أن نذكر أن هناك آية لا تتناول الألوان صراحة ، ولكنها تشير فى الحقيقـة

---

(١) الآية (٤٦) من سورة الصافات.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٦.

(٣) الآيتان (٤٥ ، ٤٦) من سورة الصافات.

(٤) من الآية (٣٨) والآية (٣٩) من سورة عبس.

(٥) الآيتان (٣٢ ، ٣٣) من سورة المرسلات

إلى عمل التلوين ، وأنه من الحق – سبحانه وتعالى – كما فسره رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فيما يروى عنه. وهذه الآية هى قوله – جل وعلا – : (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون)[1] وقد نسب إلى ابن عباس تفسيره (صبغة الله) بدين الله ، ولكن يروى عنه أيضا أنه ذكر أن النبى –صلى الله عليه وسلم – قال: "إن بنى إسرائيل قالوا يا رسول الله هل يصبغ ربك؟ فقال: اتقوا الله. فناداه ربه يا موسى سألوك هل يصبغ ربك؟ فقل نعم: أنا أصبغ الألوان الأحمر والأبيض والأسود والألوان كلها من صبغى".[2]

ويعلق ابن كثير على ذلك بأنه فى رواية ابن مردويه مرفوع وهو فى رواية ابن أبى حاتم موقوف ، وهو أشبه إن صح إسناده والله أعلم . وقد مر بنا هذا الحديث منسوبا إلى نبينا –– صلى الله عليه وسلم – والسؤال منسوبا إلى بعض الصحابة أو الزائرين له.

وليس هناك ما يمنع من أن تكون هناك مناسبتان قال نبينا فى أحداهما ما حصل من نبى إسرائيل ومن موسى وربه –– عز وجل –، وفى الأخرى أجاب بما عرف أنه الحق الذى لا غضاضة فيه ما دام قد صدر التصريح به من الله – عز وجل––.

خامسا: اللون الأبيض :

يسمى باللون الأبيض تجاوزا لكونه ضوءا وليس لونا ، ويوحى بالصفاء والنقاء والطهارة والصدق والفرح والاتساع. وفى القرآن الكريم تظهر كلمتا "أبيض وأسود" متتابعتين للتعبير عن التضاد بين النور والظلمة لا التضاد بين اللونين الأبيض والأسود.

---

(١) الآية (١٣٨) من سورة البقرة.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٨٨.

لقد ذكر لفظ "الأبيض" من حيث الشكل اللغوى فى القرآن الكريم اثنتى عشرة مرة . وقد ذكر هذا اللفظ اسم صفة تسع مرات، وفعلا ثلاث مرات. فالاسم هو الغالب على الفعل. ويدل ذلك على أن الأبيض فعل الشيء كما أنه صفة له بخلاف الأخضر الذي هو صفة للشيء وليس فعلا له . إنما فعل الأخضر لله بإنزال الماء وللإنسان بالزرع . وقد ذكر اسم الصفة مفردا مؤنثا فى صيغة " بيضاء" ست مرات ، ومرة واحدة مفردا مذكرا فى صيغة " أبيض" ومرتين جمع فى صيغة "بيض" . فالغالب هو المفرد المؤنث مثل المرأة البيضاء رمز النعمة والرفاهية .أما الفعل فقد ذكر مرتين فى الماضى وصفا لحدث متغير ، ومرة واحدة فى المضارع حكما على حقيقة ثابتة.

فمن حيث المضمون أى الموصوف فقد ذكرت اليد البيضاء خمس مرات فى القرآن الكريم معجزة حسية لسيدنا موسى - عليه السلام -.

١-قال تعالى : (ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين)[١]

٢-قال - عز وجل - (واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى).[٢]

---

(١) الآية (١٠٨) من سورة الأعراف.

(٢) الآية (٢٢) من سورة طه.

٣- قوله - جل شأنه - : (وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء). [١]

٤-قوله - تعالى - : (اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء). [٢]

أما بالنسبة للوجوه التى تبيض يوم القيامة من أثر الأعمال الصالحة فقد ذكرت فى القرآن الكريم مرتين .

قال - تعالى- : (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون). [٣]

ويتضح هنا أن المقصود بالاسوداد هنا القتامة والغبرة والكآبة لا للون الأسود فى إطلاقه . فهو نظير قوله - تعالى - (ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة).[٤]

فى مقابلة قوله - تعالى - : (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة).[٥]

---

(١) من الآية (١٢) من سورة النمل.

(٢) الآية (٣٢) من سورة القصص.

(٣) الآيتان (١٠٦ ، ١٠٧) من سورة آل عمران.

(٤) الآيتان (٢٤ ، ٢٥) من سورة القيامة.

(٥) الآيتان (٢٢ ، ٢٣) من سورة القيامة.

يقول الدكتور كمال جعفر : " إن الاسوداد فى الآخرة ليس هو الاسوداد المعهود فى الدنيا من حيث كونه لونا قد يتمتع به بشرة بعض الناس . لأن السواد الذى يصف بشرة بعض الناس ودرجاته المختلفة قد ذكر فى القرآن الكريم آية من آيات القدرة والغنى ، وكما ذكر فى مقام الامتداح والثناء ، وإذن فلا يحق لمتخرص أن ينسب إلى الإسلام آية نزعة عنصرية أولونية ، وليس له أن يحتج بأن السواد قد جعل فى الآخرة علامة من علامات سوء المصير ، لأننا أكدنا ومازلنا نؤكد أن هذا السواد الأخير هو ثمرة كسب المرء الذى سود نقاء صحيفة ضميره ووجدانه ، ولوث جوارحه بمعصية الله ، فليس سواده ذلك اللون الذى خلقه الله به ، لأن سواد البشرة لا يعدو أن يكون فى الحياة الدنيا مثل غيره من الألوان آية من آيات الله ، أما ذلك السواد الأخروى فهو سواد التلوث والقتامة والغبرة وسوء المآب ، فهو سواد مشين لأنه ثمرة الانحراف .

وبالمثل يمكن أن يقال إن بياض البشرة فى الحياة الدنيا ليس مدعاة للفخر، لأنه لا يزيد على أى لون فى كونه آية من آيات الله ، أما فى الآخرة فهو أمارة النقاء وحسن العاقبة. ولذا حق للمرء أن يفخر به لأنه من ثواب الله - سبحانه - فالسواد فى الآخرة عار، والبياض فى الآخرة فخار، وهما معا فى الدنيا متساويا مع سائر الألوان فى جلد الإنسان كآية من آيات الله).[1]

وذكر اللون الأبيض مرة واحدة كدلالة حقيقية على الحزن قال - تعالى - (وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم). [2]

---

(١) رمزية الألوان بين الأديان ص ٢٩٢.

(٢) الآية (٨٤) من سورة يوسف - عليه وسلم.

وذكر اللون الأبيض أربع مرات مرة للضوء وكأنه خيط أبيض بازغا من الظلمة كخط أسود. يقول الحق - سبحانه وتعالى - فى الآيات المتعلقة بفريضة الصوم مبينا الحد الفاصل بينه وبين جواز الإفطار : (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر).[1]

هذه الآية تشير إلى ظاهرة كونية هى انفصال وانبثاق ضوء الصبح الأبيض عن ظلام الليل الأسود. وعبر عن ذلك بالخيط الأبيض والخيط الأسود. وقد فهم بعض الرجال الذين تمسكوا بحرفية الكلمات دون أن يراعوا التقييد بقوله (من الفجر) أن المراد إمكان التمييز بين خيطين حقيقين أحدهما أبيض والآخر أسود، حتى إن أحدهم كان يربط فى رجليه هذين الخيطين فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما .

ويقال إن قوله - تعالى- : (من الفجر) نزلت للتحديد الدقيق المراد وهو الليل والنهار. وروى أنه عندما نزلت هذه الآية قال عدى بن حاتم أخذت عقالين أبيض وأسود فجعلتهما تحت وسادتى، وكنت أقوم من الليل فانظر إليهما، فلم يتبين لى الأبيض من الأسود ، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبرته بذلك فضحك، وقال: "إنك عريض القفا، إنما ذلك بياض النهار وسواد الليل " .

وإنما قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "إنك لعريض القفا " لأن ذلك مما يستدل به على بلاهة الرجل ". [2]

---

(١) من الآية (١٨٧) من سورة البقرة.

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازى م٢ - ج٥ - ص ٢٧٣.

هذا ولقد حث ديننا الحنيف على ارتداء الثياب كما ورد فى السنة النبوية المطهرة حيث ذكر البخارى فى صحيحه عن سعد بن إبراهيم عن أبيه عن سعد قال : رأيت بشمال النبى - صلى الله عليه وسلم - ويمنيه رجلين عليهما ثياب بيض يوم أحد ما رأيتهما قبل ولابعد).[1]

وعن أبى ذر قال : أتيت النبى - صلى الله عليه وسلم - وعليه ثوب أبيض وهو نائم ثم أتيته وقد استيقظ فقال : ما من عبد قال لا اله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة. قلت وإن زنى وإن سرق قلت وإن زنى وإن سرق، قال: وإن زنى وإن سرق قال: وإن زنى وإن سرق قلت وإن زنى وإن سرق ، قال: وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبى ذر"[2]

ولقد ذكرت كتب الفقه أنه يستحب للمسلم ارتداء الثياب البيض وبخاصة فى صلاة الجمعة والأعياد ومجامع الناس وهذا من خلال أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن واقع ما أخبرنا عنه من أن الجنة خلقت بيضاء. يقول عبد الله الموصلى:"ويستحب الأبيض من الثياب[3] - لقوله - عليه الصلاة والسلام " خير ثيابكم البياض "[4] وقوله أيضا " إن الله تعالى يحب الثياب البيض، وإنه خلق الجنة بيضاء".[5]

---

[1] فتح البارى باب الثياب البيض ٢٨٢/١٠.

[2] أخرجه البخارى " حاشية السندى" كتاب اللباس باب الثياب البيض م٢ - ج٤ - ص٣٠.

[3] الاختيار لتعليل المختار ٣٨/٤.

[4] الحديث بتمامه فى كشف الخفاء ومزيل الألباس لإسماعيل العجلونى ٤٦٧/١ .

[5] الاختيار لتعليل المختار ٣٨/٤ .

سادسا : اللون الأسود :

يسمى هذا اللون باللون الأسود تجاوزا لكونه انعدام الضوء تماما أى الظلام . ويرمز للحزن والأسى والألم والخوف من المجهول والفناء .

واللون الأسود من حيث الشكل اللغوى قد ذكر فى القرآن الكريم سبع مرات . منها اسم صفة خمس مرات ، وفعل مرتين مما يدل على أن السواد صفة للشيء أكثر منه فعلا إنسانيا. والصفة الغالبة فى الحقيقة هى صفة فعل " مسود " مرتين مذكر ، ومرة مؤنث مما يدل على أن السواد صفة فعل تتغير فى الأشياء .

ولقد ذكر اللون الأسود فى القرآن الكريم معبرا عن حالات الضيق والكرب والحزن فى معرض الحديث عن عادة جاهلية وهى إيداء الكراهية والضيق والحزن والاشمئزاز لولادة الإناث . ومن هنا نجد أن القرآن الكريم يضيف إلى محدودية اللون شيئا إضافيا يصور الحالة النفسية التى يعانيها من يستقبل نبأ ولادة الإناث وذلك من خلال موضعين:-

الأول فى قوله - تعالى - (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء مابشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء مايحكمون).[1]

الآيتان لم تكتف هنا بوصف الوجه بالسواد بل أضافت إليه ما يعتمل فى صدر هذا الإنسان من الغيظ والكمد والإحساس بالعار حتى إنه ليتوارى عن الأعين مخافة أن تحدق فيه. والإضافة دالة على أن اللون وحده ليس بالضرورة يشير إلى الاستياء أو الامتعاض ، لأن السواد فى حد ذاته قد يكون لونا طبيعيا لمن اسودت بشرته من الميلاد ، أمارة من

---

[1] الآيتان (٥٨ ، ٥٩) من سورة النحل .

أمارات قدرة الخالق على اختلاف الألسنة والألوان كما صرح القرآن الكريم بذلك .

ويقول الفخر الرازى فى تفسير قوله - تعالى :- (ظل وجهه مسودا) " المعنى أنه يصير متغيرا تغير مغتم ، ويقال لمن لقى مكروها قد اسود وجهه غما وحزنا ، وأقول إنما جعل اسوداد الوجه كناية عن الغم، وذلك لأن الإنسان إذا قوى فرحه انشرح صدره وانبسط روح قلبه من داخل القلب ووصل إلى الأطراف ، ولاسيما إلى الوجه لما بينهما من التعلق الشديد، وإذا وصل الروح إلى ظاهر الوجه أشرق الوجه وتلألأ واستنار، وأما إذا قوى غم الإنسان احتقن الروح فى باطن القلب ولم يبق منه أثر قوى فى ظاهر الوجه ، فلا جرم يريد الوجه ويصفر ويسود ويظهر فيه أثر الأرضية والكثافة ، فثبت أن من لوازم الفرح استنارة الوجه وإشراقه ، ومن لوازم الغم كمودة الوجه وغبرته وسواده ، فلهذا السبب جعل بياض الوجه وإشراقه كناية عن الفرح ، وغبرته وكمودته وسواده كناية عن الغم والحزن والكراهية، ولهذا المعنى قال : (ظل وجهه مسودا وهو كظيم) أى ممتلىء غما وحزنا " [1]

وأريد هنا أن أبين أن هذه النظرة للإناث غير صحيحة وقد جاء فى السنة المطهرة ما يؤيد ذلك .

فقد ورد فى صحيح مسلم عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : جاءتنى امرأة ومعها ابنتان لها، فسألتنى فلم تجد عندى شيئا غير تمرة واحدة ، فأعطيتها إياها فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئا ،ثم قامت فخرجت وابنتاها فدخل على النبى - صلى الله عليه وسلم - فحدثته حديثها ، فقال النبى- صلى الله عليه وسلم -:" من ابتلى من البنات بشىء

(١) مفاتيح الغيب م ٧ - ج٢٠ - ص ٢٢٥ .

فأحسن إليهن كن له سترا من النار "[1] ففى هذا الحديث مـــايدل علـــى أن البنات بلية ، ثم أخبر أن فى الصبر عليهن والإحسان إليهن ما يقـــى مـــن النار .[2]

وعن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : جـــاءتنى مســكينة تحمل ابنتين لها ، فأطعمتها ثلاث تمرات فأعطت كل واحدة منها تمـــرة ، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها فشقت التمرة التى كـــانت تريد أن تأكلها بينهما ، فأعجبنى شأنها، فذكرت الذى صنعت لرســـول الله - صلى اله عليه وسلم - فقال : " إن الله قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقـها بها من النار".[3]

وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مـــن عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو وضم أصابعه" [4].

وقال - رسول الله صلى الله عليه وسلم :- من كـــانت لـــه ابنـــة فأدبها وأحسن أدبها وعلمها فأحسن تعليمها فأوسع عليها من نعم الله التـــى أسبغ عليهما لا يرضونه لأنفسهم . وكان المقتضـــى أن يعظمـــوا الأنثـــى ويفتخروا بها إذا كانوا جادين فى نسبتها إلى الحق- سبحانه وتعـــالى -، أو ينزهوا الله - سبحانه - عن أن يكون له البنات ، وعندئذ قد يفـــهم مـــبرر عدم ترحيبهم بالأنثى .

ويلاحظ أن اسوداد الوجه هنا من كسب الإنسان - وليس أمـــرا طبيعيا ينسب إلى عمل الرحمن- ومن ثم فهو صفة ذم وأمارة لوم وعيب، مثله فى ذلك مثل اسوداد وجوه الكفار يوم القيامة، بيد أن هـــذا الاســـوداد

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة باب فضل الإحسان إلى البنات ٣٨/٨ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٢٤/١٠ .

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة باب فضل الإحسان إلى البنات ٣٨/٨.

(٤) أخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة باب فضل الإحسان إلى البنات ٣٨/٨ وما بعدها .

بالنسبة لأبى الأنثى يصحبه محاولة التخفى وإمكانية التوارى عن الأعيـن، على حين أنه فى الآخرة (لاوزر) لأنه (إلى ربك يومئذ المستقر) [1]

يقول الفخر الرازى فى تفسير هذه الآية : " والمعنى أن الذى بلـغ حاله فى النقص إلى هذا الحد كيف يجوز للعاقل إثباته لله - تعالى -! وعن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى" [2]. فهجر البيت الـذى فيـه المرأة ، فقالت :-

مالأبى حمزة لايأتينا يظل فى البيت الذى يلينا غضبان أن لانلد البنينا
ليس لنا من أمرنا ماشينا وإنما نأخذ ما أعطينا[*]

ما تقدم كان حديثا عن اللون الأسود والحالة النفسية المرتبطة بـه وذلك فى الحياة الدنيا. إلا أنه قد ورد أيضا ذكر للون الأسود فـى الحيـاة الآخرة يوم القيامة حيث تتبدل وجوه الناس فتسود وجوه الكافرين وتبيـض وجوه المؤمنين . يقول - سبحانه وتعالى -: (يوم تبيض وجوه وتسـود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العـذاب بمـا كنتم تكفرون).[3]

---

(١) انظر : رمزية الألوان بين الأديان ص ٢٨٧ وما بعدها .

(٢) مفاتيح الغيب م ٩ - ج٢٧ - ص ٦٢٤ .

(*) لهذا الرجز تتمة أو هى رواية أخرى رواها الجاحظ فى " البيان والتبيين "
كأنما نلك فى أيدينا ونحن كالأرض لزارعينا نخرج ماقد بذروه فينا

(٣) الآية (١٠٦) من سورة آل عمران .

وقوله تعالى : (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين) [1]

يقول الفخر الرازى : (والأقرب أنه سواد مخالف لسائر أنواع السواد ،وهو سواد يدل على الجهل بالله والكذب على الله ، وأقول إن الجهل ظلمة ، والظلمة تتخيل كأنها سواد فسواد قلوبهم أوجب سواد وجوههم ، وتحت هذا الكلام أسرار عميقة من مباحث أحوال القيامة)[2]

الألوان فى السنة النبوية المطهرة :

مما لاشك فيه أن ظاهرة الألوان وتنوعها كما تناولها القرآن الكريم تناولتها السنة النبوية المطهرة ، وذلك لتحقيق أغراض متباينة ومتنوعة كتوضيح أمر خفى غامض أو وصف دقيق سليم أو غرس وتربية حاسة الذوق والجمال فى أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وذلك دون اخلال بأسس العقيدة أو مساس بمقضيات الشريعة .

والذى يجب أن نلفت الأنظار إليه هنا هو أن هناك أحاديث موضوعة و بالتالى تكون مرفوضة وغير مقبولة إذ لا يقبل من الأحاديث إلا ما توافرت فيها شروط الصحة والقبول التى وضعها علماء الجرح والتعديل الذين خدموا السنة النبوية المطهرة خدمة جليلة أمنت الطريق إليها مسلطة الأضواء على ضعيفها وموضوعها . ولعل من نافلة القول أن أشير إلى أنه يجب علينا بادىء ذى بدء أن نحذر كل مايرد من أحاديث على لسان أية فئة تنتمى إلى نمط فكرى معين أو أسلوب سياسى خاص ، إذ أن أمثال هؤلاء يحاولون عبثا التماس تأييد الدين لأنماطهم الفكرية أو أساليبهم السياسية عن طريق السنة النبوية بعد أن عجزوا عن تحقيق هدفهم عن طريق القرآن الكريم . ومن الأحاديث التى توضح لنا

(١) الآية (٦٠) من سورة الزمر.

(٢) مفاتيح الغيب م ٩- ج٢٧ - ص ٤٦٩ .

هذا النهج ما رواه بعض دعاة الدولة العباسية فـــى أواخـــر القـــرن الأول الهجرى وأوائل القرن الثانى من أن النبى – صلى الله عليه وســـلم – قـــد قال :" إن الناس بخير ما لبسوا السواد " [1] وكانت الدولـــة العباســـية قـــد اتخذت السواد شعارا لها والسر فى وضع هذا الحديث ونسبته إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – زورا وبهتانا هو العمل على ضم الكثير مـــــن الناس بارتداء هذا الزى بإعتبار هذا الحديث توجيها نبويا . وممـــا لاشـــك فيه أنه من غير المعقول بحال من الأحوال أن يُعلق الرسول - صلـــى الله عليه وسلم - خيرية الحياة البشرية على ارتداء اللبـــاس الأســـود ، وزوال الخيرية بزوال مثل هذا اللباس .

هذا والمتصفح للسنة النبوية المطهرة بنوعيها "قولية وفعلية " يجـــد الكثير من الألوان قد وردت فيهما إن لم تكن جميعها . ولنضـــرب مثـــالا بقول المعصوم - صلى الله عليه وسلم - " لقد تركتكم على مثل البيضـــــاء ليلها ونهارها سواء " [2] فقد وصف النبى – صلى الله عليه وسلم – ســـنته والدين القويم بالبياض وضوحا وصفاء وطهارة ونقاء لا يشـــــوبها خفـــاء أو ظلمة . والأمر الذى لا يختلف فيه اثنان هو وضوح الإسلام ممثلا فى كتاب الله – عز وجل – وسنة نبيـــــه - صلـــوات الله وســـلامه عليـــه - والملاحظ على هذا الحديث أن فيه وصفا حقيقيا ودقيقا لما تركه الرســـول - صلى الله عليه وسلم - وذلك فى صورة محسوســـة وظـــاهرة ومقنعـــة وواضحة - وما أجمل وما أروع قوله – عليه الصلاة والسلام –: " ليلـــها ونهارها سواء" إذ إن هذه العبارة تدل على اســـتواء الطرفيـــن وضوحـــا

(١) مما يعزر وضعه أنه لا يذكر إلا فى كتب التاريخ للذهبى .

(٢) الحديث بتمامه فى سنن ابن ماجة ١/٥ .

ونصاعة وضياء وطهرا ونقاء وهداية . ومن ثم أصبح لا يزيغ عنـــها إلا هالك .

وقد استعمل الرسول - صلى الله عليه وســـلم - تبـــاين الألـــوان واختلافها فى تمييز السلوك فقد روى عمرو بن العاص قائلا : بينما نحـــن مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى هذا الشعب إذ قال : انظـــروا هل ترون شيئا؟ فقلنا نرى غربانا فيها غـــراب أعصـــم أحمـــر المنقـــار والرجلين . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " لا يدخل الجنـــة من النساء إلا من كان منهن مثل هذا الغراب فى الغربان" [1]- فـــالنبى - صلى الله عليه وسلم - يبين لنا فى هذا الحديث أن مـــن يســـتحق دخـــول الجنة من النساء لابد وأن يتخلص من الكثير من الأمور التى يقـــع فيـــها بعض النساء من ثرثرة وغيبة وما إلى ذلك من أوجه الضعـــف الخلقـــى والنفسى. وقد فهم هذا المعنى من تفرد هذا الغراب وانفراده بهذا اللـــون •، مع أن المعهود أن جميع الغربان يتسم بالسواد الفاحم .

هذا ويلاحظ أن فى هذا الحديث النبوى إشارة بارعة إلـــى ثمـــرة الوضوء بالنسبة للمصلين الذين قال عنهم المعصـــوم - عليـــه الصـــلاة والسلام - " إن أمتى يدعون يوم القيامة غزا محجلين من آثار الوضـــوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل [2] والعزة تكـــون فـــى الوجـــه وأصلها البياض فى جبهة الفرس ، بينما يكون التحجيل فى القدمين وأصله بياض فى قوائم الفرس كلها أو بعضها .

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى كتاب أهل الجنة باب فيمـــن يدخـــل الجنـــة مـــن النســـاء ٣٩٩/١٠.

• حمرة المنقار والرجلين.

(٢) أخرجه البخارى كتاب الوضوء باب فضل الوضوء والغر المحجلون من آثـــار الوضوء ١١٥/١ حديث رقم ١٢٧ .

الألوان من واقع الحياة الإسلامية فى عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - :

مما يسترعى الانتباه ويلفت النظر فى عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم- بالنسبة للألوان هو ألوان الرايات والأعلام التى اتخذت فى مواقف الغزو أو المواقف الأخرى الجادة التى كانت تتطلب الاجتماع والالتفات - حوله - عليه الصلاة والسلام - أو التفات جماعة أو قبيلة معينة حول أميرها أو رئيسها . وقد ورد أنه فى فتح مكة كانت القبائل فى جيش المسلمين تمر مع النبى - صلى الله عليه وسلم - كتيبة كتيبة على مرأى ومسمع من أبى سفيان، وذلك ليريه مدى كثرة وقوة بأس المسليمن مما أثار إكبار وإجلال أبى سفيان للجيش الإسلامى ، حتى أنه عبر ذلك بقوله للعباس : لقد أصبح ملك ابن اخيك الغداة عظيما ، قال : قلت يا أبا سفيان إنها النبوة وليست الملك ". [1]

فلقد تنوعت ألوان الرايات فكانت هناك الرايات البيض ، وكذلك كان اللواء فى غزوة بدر أبيض[2] أما فى فتح مكة فتعددت الروايات حول ألوان الألوية والرايات ، والدليل على ذلك ماكره النسائى وأبو داود عن جابر أن لواء النبى - صلى الله عليه وسلم _ يوم دخول مكة كان الأبيض، أو الأصفر كما كان له لواء أسود ، وأمامه رايتان سوداوان ، أحدهما مع على ابن أبى طالب ، يقال لها العقاب والأخرى مع بعض الأنصار".[3]

---

(١) انظر ذلك بالتفصيل فى السيرة النبوية لابن هشام ٢٦/٤ وما بعدها.

(٢) انظر عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير ٢٦٠/٢.

(٣) انظر ذلك بالتفصيل فى السيرة النبوية لابن هشام ١٨١/٢.

وقد كانت هناك رايات مخططة أو منقطة بها النقاط السود والبيض ، وذكر ابن عباس أن راية النبى - صلى الله عليه وسلم - سوداء ولواءه أبيض وكان مكتوبا عليها لا إله الا الله محمد رسول الله .

هذا ولقد كان لسعد بن مالك الأزدى راية سوداء وفيها هلال أبيض ، وقد شهد فتح مصر ومنه أخذ رسم صورة الهلال فى الراية الإسلامية إبان الخلافة الإسلامية .

بينما يذهب البعض إلى أن رسم الهلال يعتبر علامة رسمية اتخذها العثمانيون بعد نجاحهم فى هزيمة والد الاسكندر المقدونى ، إذ صادف ذلك وقت السحر ورؤية القمر فاستبشرت به واتخذت الهلال شعارا رسميا لذلك ، ولكن إذا لاحظنا الرواية السابقة الخاصة باتخاذ سعد بن مالك الهلال رمزا لم نجد مانعا من أن يكون ذلك هو مصدر التبنى للشعارفى سائر الأقطار الإسلامية .

ومهما يكن من أمر فإن استخدام الرايات والأعلام والشعارات الملونة كان عاملا هاما فى جمع القلوب وتأليفها وتحميس الجنود فى التفاتهم حول اللواء وإكسابهم الشعور بالعزة والتفانى فى الفداء والجهاد .

هذا ولم يقتصر استخدام الألوان على الرايات والأعلام والشعارات بل شمل أيضا لون الرءوس من حيث لون تعميمها . فقد لبس الرسول - صلى الله عليه وسلم - العمامة من كل لون تقريبا ، لكن لا داعى لسرد هذه الألوان ومناسبتها إلا أنه ينبغى أن يعلم أنه كان له - صلوات الله عليه وسلامه - لامة سوداء . كان إذا لبسها لم يضعها حتى تتم الغزوة ويحسم الأمر وكان - صلى الله عليه وسلم - يقول : " ما كان لنبى أن يضع لامته حتى يفصل الله بينه وبين قومه ".[1]

---

[1] ورد فى السيرة النبوية بلفظ آخر ٣/١٧ هو" ماينبغى لنبى إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل "

وكان - صلى الله عليه وسلم - يأمر أصحابه أن يتخذوا شعارا يضعونه على رءوسهم أو جبهتهم وكثيرا ما كان يقول لأهل بدر يوم بدر: " تسوموا فإن الملائكة قد تسومت " [1] يشير بذلك إلى ما ورد في القرآن الكريم من إنزال الملائكة مسومين لتقاتل مع المؤمنين. وكان بعض الصحابة يضع عصابة حمراء أمارة على العزم على القتال ، وشعارا يسهل التعرف عليه بين المقاتلين .

وقد ورد أيضا أن راية الأنصار في بعض المعارك كانت صفراء، وأن راية وفد سليم كانت حمراء، وهكذا اتخذت الرايات والأعلام سائر الألوان وإن غلب اللون الأسود في مجال الجد والقتال ". [2]

ولقد سجل الرواة ألوان مخصصات الرسول - صلى الله عليه وسلم - لاسيما الحيوان كالناقة الحمراء والبغلة البيضاء . ولعل من المناسب أن ننتقل إلى جانب آخر اشتملت عليه السنة في تواز وانسجام واتساق مع القرآن الكريم . وهذا يتجلى واضحا وبصورة رائعة فيما يتعلق بعالم الغيب أو مايدنى منه .

الألوان وعالم الغيب في السنة النبوية المطهرة :

لقد تحدث الرسول- صلى الله عليه وسلم - عن شق صدره الشريف وهو ما يزال عند مرضعته السيدة حليمة السعدية وذكر أنه أقبل عليه طائران أبيضان كأنهما نسران واستخرجا بعد الشق من قلبه عقلتين سوداوين [3] هما موضع الغل والحقد .

---

[1] ورد في الجامع الكبير للسيوطي بلفظ آخر ٦١٨/١

[2] انظر : نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية للكتاني ٣٣٢/١ وما بعدها نقلا عن رمزية الألوان بين الأديان ص ٣٠٢

[3] أورده الإمام أحمد في مسنده ١٨٤/٤ .

فقد ورد فى السيرة النبوية أن نفرا من أصحاب رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قالوا له : يا رسول الله . أخبرنا عن نفسك ؟ قال نعم أنا دعوة أبى إبراهيم، وبشرى أخى عيسى، ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام ، واسترضعت فى بنى سعد ابن بكر. فبينا أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بهما لنا : إذ أتانى رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوء ثلجا . ثم أخذانى فشقا بطنى ، واستخرجا قلبى ، فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها . ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتى أنقياه....."[1]

فالملائكة أخذت مظهر الطائر من جهة والبشر من جهة واللون الأبيض من جهة أخرى ، وموضع الغل والحقد اتخذ اللون الأسود - وهذا وارد فى وصف السوء أو الخلل النفسى والسلوكى ...

ويعلق الدكتور كمل جعفر على ذلك بقوله : " وقد يحاول البعض أن يعتبر ذلك مجرد رمز ينم عن معان تجريدية وحقائق روحية ، وأنها وضعت على هذه الصورة الرمزية بغية الإيضاح بإحالة المجرد الذهنى إلى محسوس مملوس ، وقد نرى فى ذلك تكلفا محاولة لإخضاع عالم الغيب لمقاييس ومعايير آدمية ، وهذا خطأ فادح فى المنهج . على أنه

- * كان هذا التقديس وهذا التطهير مرتين :

الأولى : فى حالة الطفولة لينقى قلبه من مغمز الشيطان ، وليطهر ويقدس من كل خلق ذميم ، حتى لايلتبس بشىء ممايعاب على الرجال ، وحتى لا يكون فى قلبه شىء إلا التوحيد ، ولذلك قال : فوليا عنى ، يعنى الملكين ، وكأنى الأمر معاينة

والثانية : فى حال الاكتهال ، وبعد ما نبىء عندما أراد الله أن يرفعه إلى الحضرة المقدسة التى لا يصعد إليها إلا مقدس ، وعرج به هنالك لنفرض عليه الصلاة وليصلى بملائكة السموات ، ومن شأن الصلاة فقدس ظاهرا وباطنا ، وغسل بماء زمزم . السيرة النبوية لابن هشام ١٢٩/١ راجعه وقدم له طه عبد الرءوف سعد .

حتى بافتراض الرمزية لا تعدم الألوان دلالتها فى هذا الصدد ، وهذا ما نود تأكيده والإلحاح عليه.(١)

فهذا بلا شك يماثل أيضا ما روى بشأن الإسراء والمعراج حيث يذكر أنه عندما انتهى الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى بيت المقدس فعرض عليه الخمر والماء واللبن ، وفى رواية يزاد العسل . فتناول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اللبن . " فقال له جبريل أصبت الفطرة ، ولو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك ، ولو شربت الخمر لغويت وغويت أمتك... (٢).

وفى هذا المثال ترد فيه الألوان بمجرد دلالة الأسماء، فانعدام اللون يتمثل فى الماء والحمرة فى الخمر والبياض فى اللبن والصفرة أو الحمرة الداكنة فى العسل وهذا مثل ما ذكر فى وصف أنهار الجنة التى تشمل الماء غير الآسن، واللبن الذى لم يتغير طعمه والخمر اللذة للشاربين ، والعسل المصفى . كل هذا يشير إلى الألوان والطعوم بمجرد الأسماء فى القرآن الكريم. إلا أنه فى بعض الآيات منح الخمر لونا آخر مخالفا لخمر الدنيا فى قوله - سبحانه وتعالى - : (بيضاء لذة للشاربين).(٣)

وتتابع ذكر الألوان فى وصف الرسول - صلى الله عليه وسلم- لبعض الأحوال والآيات التى أراه الله - جل وعلا - إياها على سبيل البشر به والتكريم له فى هذه الليلة المباركة ليلة الإسراء والمعراج. فمثلا البراق الذى حمل الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان لونه أبيض .

---

(١) رمزية الألوان بين الأديان ص ٣٠٢ وما بعدها.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥/٣ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٣٢/٢ .

(٣) الآية (٤٦) من سورة الصافات.

وهو دابة بيضاء فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه.[1]

ولقد وصف الرسول - صلى الله عليه وسلم - مشاهد كثيرة حتى غشى سدرة المنتهى ما غشاها ، وقد رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - رفرفا أخضر قد سد الأفق.

وتحدث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عما رآه من أحوال المذنبين والطائعين من عواقب الأعمال وأنماط السلوك ، وما طرأ عليهم من ألوان العقاب والثواب.

كما يخبرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن بعض مشاهد يوم القيامة فيقول : "يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتى على تل ، ويكسونى ربى - تبارك وتعالى - حلة خضراء ثم يؤذن لى فأقول ما شاء الله أن أقول ، فذاك المقام المحمود"[2]

وروى الإمام مسلم عن صهيب عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قوله: (إذا دخل أهل الجنة يقول الله تبارك وتعالى - تريدون شيئا أزيدكم فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل"[3] وهى الزيادة فى قوله - تعالى - : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة).[4]

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٣، والبخارى بحاشية السندى باب المعراج٢/٣٢٧.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤٥٦/٣.

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووى باب إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة لربهم - سبحانه وتعالى ١٧/٣ ، وورد فى الاعتقاد للبيهقى ص ٥٨ بلفظ آخر.

(٤) من الآية (٢٦) من سورة يونس - عليه السلام - .

من هنا نرى أن السنة النبوية المطهرة تبين القرآن الكريم وتتقن معه فى بيان المعنى فالحسنى هى الجنة ، والزيادة فهى النظر إلى وجه الله - عز وجل - .

الفلاسفة والألوان

ابن سينا:

لقد أدرج ابن سينا - كما هو الشأن لدى أرسطو - دراسة الجهاز الحسى ضمن العلوم الطبيعية وخصص فصلا بأكمله فى كتابه "الشفاء" لدراسة مشكلات الرؤية.

وفى البداية نذكر تعريف الإدراك عند ابن سينا سواء كان حسيا أم عقليا بأنه قبول المدرك لصورة المدرك . يقول ابن سينا: "إدراك الشئ هو أن تكون حقيقته متمثلة عن المدرك يشاهدها بما به يدرك"[1] (١) ويقول أيضا: "يشبه أن يكون كل إدراك إنما هو أخذ صورة المدرك بنحو من الأنحاء"[2] فإذا كان الإدراك عقليا فهو امتثال صور المعقولات فى العقل. وإذا كان الإدراك حسيا فهو امتثال صور المحسوسات فى الحواس.

يقول ابن سينا: " المحسوسات كلها تتأدى صورها صورها إلى آلات الحس وتتطبع فيها فتدركها القوى الحاسة".[3] ويقول أيضا : "كل واحدة من هذه القوى (الحاسة) إذا حققت فإنما تدرك بتشبه بالمحسوس . بل إنما تدرك أولا ما تأثر فيها من صورة المحسوس. فإن العين إنما تدرك الصورة فيها من المحسوس".[4]

---

(١) الإشارات ١٣٠/١ طبعة مصر ١٣٢٥ هـ نقلا عن : الإدراك الحسى عند ابن سينا للدكتور عثمان نجاتى ص ٤٥.

[2] الشفاء ٢٩٥/١ نقلا عن : المرجع السابق.

[3] النجاة ٢٩٥/١ نقلا عن : المرجع السابق.

[4] مبحث عن القوى النفسانية ص ٤٥ ، ٤٦ نقلا عن : المرجع السابق.

وفى هذا المعنى يقول الفارابى : "الإدراك يناسب الانتقاش ، فكما أن الشمع يكون أجنبيا عن الخاتم ، حتى إذا طابقه وعانقه معانقة ضامة رحل عنه بمعرفة ومشاكلة صورة ، كذلك المدرك يكون أجنبيا عن الصورة ، فإذا اختلس عنه صورته عقد معه المعرفة ، كالحس يأخذ من المحسوس صورة يستودعها الذكر فيتمثل فى الذكر وإن غاب عن الحس". (١)
والى هذا المعنى ذهب أرستو.

والحواس تقبل صور المحسوسات دون ماتدتها. يقول ابن سينا : " الإحساس هو قبول صورة الشئ (المحسوس) مجردة عن مادته فيتصور بها الحاس " (٢) وإلى هذا المعنى ذهب أرسطو.

وبما أننا نتكلم عن الإدراك الحسى فلا بد أن نتحدث عن الإحساس المصاحب لهذا الإدراك والإحساس فى العادة هو شعور باللذة أو الألم. فإذا تكيف الحس بكيفية ملائمة شعر باللذة ، وإذا تكيف بكيفية منافية أو منافرة شعر بالألم فاللذة إدراك الملائم، والألم إدراك المنافى. وإدراك الملائم كمال للمدرك وحصول الكمال لذة ، ولذلك كان إدراك الملائم لذة.

يقول ابن سينا: " لذة ل قوة حصول كمالها فللحس المحسوسات الملائمة " (٣)

ويقول أيضا: " كل مستلذ به فهو سبب كمال يحصل للمدرك. وهو بالقياس إليه خير . ثم لا شك فى أن الكمالات وإدراكاتها متفاوتة. فكمال الشهوة مثلا أن يتكيف العضو الذائق بكيفية الحلاوة مأخوذة عن

---

(١) نصوص الحكم ص ٤٥ نقلاً عن المرجع السابق ص ٤٦.
(٢) الشفاء ١ / ٢٩٧ نقلاً عن : المرجع السابق.
(٣) النجاة ص ٤٠٢ نقلاً عن : المرجع السابق ص ٤٦.

مادته. ولو وقع مثل ذلك لا عن سبب خارج كانت اللذة قائمة. وكذلك الملموس والمشموم ونحوهما".[١]

ولقد عرف ابن سينا اللذة أيضا بأنها إدراك ونيل الملائم. والألم إدراك ونيل المنافى فكأنه يرى أنه لا يكفى إدراك الملائم أو المنافى لحصول اللذة أو الألم ، بل يجب الحصول على الشئ اللذيذ أو المنافى ذاته.[٢]

وهنا يرد سؤال ما هو الملائم وما هو المنافى؟ فالملائم كما يرى ابن سينا هو ما يعيد المزاج الطبيعى أو يرد الاتصال الطبيعى.[٣] والمنافى هو ما يغير المزاج أو يفرق الاتصال الطبيعى.[٤]

وهذا ولقد كان لأبى بكر زكريا الرازى رأى فى اللذة والألم مستمد من آراء أفلاطون وأبيقور ويقترب كثيرا مما يقوله ابن سينا فى كتابه "القانون فى الطب" فهو يعرف اللذة بأنها عودة إلى الحالة الطبيعية ، والألم خروج عن الطبيعية. يقول الرازى: "إن اللذة حس مريح. وأما الأذى فهو حس مؤلم. والحس تأثير محسوس فيمن يحس. والتأثير فعل المؤثر فى المتأثر والتأثير عبارة عن تغيير حال المتأثر. وتلك الحال إما طبيعية أو خارجة عن الطبيعة [٥] ويقول أيضا: "إذا نقل المؤثر ذلك المتأثر من حالة الطبيعة حصل الألم والأذى. وإذا أعاد المؤثر المتأثر إلى حالة الطبيعة حصلت اللذة".[٦]

---

[١] الارشادات ٩١/٢ نقلا عن المرجع السابق ص٦١.

[٢] الارشادات ٨٧/٢ – ٨٨ نقلا عن المرجع السابق ص ٦١.

[٣] القانون فى الطب ٥٥/١ نقلا عن المرجع السابق ص ٦٢.

[٤] القانون فى الطب ٥٤/١ نقلا عن المرجع السابق ص ٦٢.

[٥] المرجع السابق ص ١٤٩.

[٦] المرجع السابق ص ١٤٩.

لقد عرفنا فيما سبق رأى ابن سينا فى ماهية اللذة والألم، وكيفية حدوثها ، ونوع علاقتهما بالإحساس ، وأنهما عنصر وجدانى مصاحب له. وبقى أن نذكر ما إذا كان العنصر وجدانى هذا يصاحب إحساس جميع الحواس أم أنه يقتصر على البعض دون البعض الآخر.

وفى هذا الإطار يقول ابن سينا: "إن الحواس منها مالا لذة له فى محسوسها ولا ألم ، ومنها ما يلتذ ولا يألم بتوسط أحد المحسوسات . فأما التى لا لذة فيها فمثل البصر لا يلتذ بالألوان ولا يألم. بل النفس تألم من ذلك وتلتذ من داخل. وكذلك الحال فى الأذن. فإن تألمت الأذن من صوت شديد والعين من لون مفرط كالضوء فليست تألم من حيث تسمع أو تبصر. بل من حيث تلمس، لأنه يحدث فيها ألم لمس، وكذلك تحدث فيها بزوال ذلك لذة لمسية. وأما الشم والذوق فيألمان ويلتذان إذا تكيفا منافرة أو ملائمة. وأما اللمس فإنه قد يألم بالكيفية الملموسة ويلتذ بها. وقد يألم ويلتذ بغير توسط كيفية هى المحسوس الأول، بل بتفرق الاتصال والتئامة".[1]

فكل اللمس والذوق والشم من خلال النص السابق يلتذ ويتألم بالكيفية المحسوسة ذاتها. أى أن موضوع اللذة والألم عند هذه الحواس هو الكيفية المحسوسة ذاتها، فإذا كانت ملائمة حدثت اللذة، وإذا كانت منافية حدث الألم. ولذلك فإن العلاقة بين الإحساس وبين الشعور باللذة والألم تظهر واضحة قوية فى هذه الحواس الثلاث. ويتميز اللمس عن الحواس الأخرى بأنه يلتذ ويألم بتفرق الاتصال والتئامه. أما السمع والبصر فالأمر فيهما على خلاف الحواس الثلاث الأخرى، فإنهما لا يلتذان ولايألمان بمحسوسهما من حيث هو مسموع أو مرئى. فليس لهما فى موضوع

---

[1] الشفاء ص ٦١ تحقيق الأب جورج قنواتى وسعيد زايد.

إدراكهما لذة أو ألم. ومع ذلك فإن اللون الشديد قد يحدث ألما فى العين، ولكنه ألم لمسى. فالعين لا تألم باللون من حيث هو لون، وإنما من حيث هو شديد. والشدة يدركها اللمس لا البصر. فالعين إذا تألم بما فيها من لمس. وزوال هذا الألم يسبب لذة لمسية . وكذلك الأمر فى السمع.

إلا أنه يعترض على ابن سينا بأن البصر يلتذ بالألوان الجميلة، ويألم بالألوان القبيحة. وكذلك الشأن للسمع فيلتذ بالأصوات الجميلة، ويألم من سماع الأصوات القبيحة.[1]

وجواب ابن سينا على هذا الاعتراض هو أن الذى يلتذ ويألم من ذلك ليس الحاسة نفسها (البصر أو السمع) "بل النفس هى التى تألم من ذلك وتلتذ من داخل" بما تثيره هذه الألوان والأصوات الجميلة أو القبيحة فى النفس من معان.

وقد يعترض على ابن سينا أيضا أنه جعل إدراك الملائم والمنافى للحواس الظاهرة الأخرى لتلك الحواس نفسها لا النفس. مع أن جميع الحواس الظاهرة تشترك فى كونها مدركة للمحسوسات الخارجية.[2]

ويظهر أن رأى ابن سينا فى اختلاف الحواس الظاهرة فى الشعور باللذة والألم راجع إلى اختلاف انفعال هذه الحواس فى القوة والضعف. فاللمس ينفعل عن الملامسة المباشرة بينه وبين الملموس ذاته. والذوق ينفعل عن ملامسة أجزاء المذوق المتحللة فى اللعاب. والشم ينفعل عن ملامسة الأجزاء المتحللة من الجسم ذى الرائحة. فانفعال هذه الحواس الثلاث يحدث عن تلاق واختلاط بين المحسوس. فهو انفعال قوى وواضح.

---

[1] انظر: الهدية السعيدية فى الحكمة الطبيعة للمولوى محمد فضل الحق العمرى الحنفى المانرتدى ص١٨٠ ، ١٨١ نقلا عن: الإدراك الحسى عن ابن سينا ص ٦٥.

[2] المرجع السابق ص ١٧٦.

أما السمع والبصر فإن انفعالهما عن المحسوس أرق وألطف من انفعال الحواس السابقة. فالسمع لا ينفعل عن الجسم المقروع وإنما الهواء المتموج. والبصر لا ينفعل عن المرئى ذاته وإنما عن صورته المنعكسة على شبكية العين انعكاسا لا يصاحبه انفعال شديد كما يحدث فى اللمس أو الذوق أو الشم. ثم إن انفعال أعضاء الحواس الثلاث الأولى يستمر بعد زوال المحسوس أكثر من استمرار انفعال أعضاء الحواس الثلاث الأولى يستمر بعد زوال المحسوس أكثر من استمرار انفعال أعضاء الحاستين الأخريين. فإننا إذا وضعنا قطعة من السكر على اللسان ثم رفعناها، فإن طعم الحلاوة يستمر فى اللسان مدة من الزمن بينما إذا وضعنا حاجزا بين العين وبين المرئى فإن صورته تزول عن العين مباشرة . ولما كان انفعال اللمس والذوق والشم أقوى ، واستمرار انفعالهما أطول ، كان شعورهما باللذة أو الألم أقوى وأوضح. والأمر على العكس فى السمع البصر.

ومن ثم يقول ابن سينا: "لما كان اللمس أكثف الحواس وأشدها استحفاظا لما يقبله من تأثير مناف أو ملائم، كان إحساسه الملائم عند نفاذ الطبيعة الكثيفة أشد إلذاذا وإحساسه المنافى أشد إيلاما من الذى يخص قوى أخرى"[1]

والألوان الأولية عند ابن سينا كما هى عند أرسطو اثنان هما الأبيض أما أفلاطون فقد ذهب إلى أن الألوان الأولية أربعة هى الأبيض والأسود واللامع أو الناصع والأحمر. وقال أبناء دقليس وديمقرقريطس بأربعة أولية هى الأبيض والأسود والأحمر والأخضر. والألوان الأولية فى العلم الحديث أربعة هى الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق.

---

[1] القانون فى الطب ١/٥٥ نقلا عن : الإدراك الحسى عن ابن سينا ص ٦٥ ، ٦٦.

والبصر لا يدرك إلا فى الضوء . وإدراك المرئى يكون بانعكاس أشعة ضوئية منه تنفذ فى وسط شفاف مثل الهواء أو الماء فتقع على العين.[1]

إذا كانت الألوان لا ترى إلا فى الضوء فهل معنى ذلك أنه ليس للألوان وجود بالفعل فى الظلام ، وإنما هى توجد بالفعل فى الضوء فقط. أو أن للألوان فى الظلام وجودا بالفعل ، ولكنها تكون كأنها مستورة يمنع الوسط المظلم من رؤيتها؟

يرى ابن سينا أنه ليس للألوان وجود بالفعل فى الأجسام المظلمة، وأنه ليس صحيحا أنها تكون مستورة ، فإن الهواء شفاف لا يستر شيئا، وإنما تكون الألوان موجودة فى الظلام بالقوة فقط لا بالفعل ، ويخرجها الضوء من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل. فاللون إذن شئ له وجود فى الخارج. هو كيفية فى الأجسام تكون موجودة بالقوة فى الظلام وتستمد من الضوء كمالها ووجودها بالفعل. والوسط الشفاف نفسه يكون شفافا بالفعل فى الضوء، ويكون شفافا بالقوة فى الظلام. ولكنه ليس يحتاج فى أن يكون بالفعل إلى استحالة فى نفسه، بل إلى استحالة فى غيره، أو إلى حركة فى غيره . أما الاستحالة فى غيره فهى استحالة الجسم الملون بالقوة إلى الاستنارة وحصول لونه بالفعل. وأما الحركة فى غيره فهى حركة الجسم المضئ إليه من غير استحالة فيه.[2]

ومن خلال كلام ابن سينا نجد أن للألوان وجودا خارجيا، إذ أنها كيفية موجودة فى الأشياء، ولكنها تكون موجود بالقوة فى الظلام، ويخرجها الضوء من القوة إلى الفعل. إلا أن العلم الحديث الآن لا يقر رأى ابن سينا فى هذا الصدد. " فمن المعروف الآن أنه ليس للألوان

---

[1] انظر: الإدراك الحسى عند ابن سينا للدكتور عثمان نجاتى ص ١١٧ وما بعدها.

[2] انظر: الشفاء لابن سينا ٨٠ وما بعدها.

وجود خارجى فى الأشياء. وإنما خبرة سيكولوجية تحدث نتيجة تأثير الإشعاعات الضوئية المختلفة فى طول موجاتها على الخلايا العصبية الموجودة فى شبكية العين. وتبدو لنا الأشياء ملونة لأنها تمتص جزءا من طاقة الضوء الساقط عليها، وتعكس الجزء الباقى الذى لم تستطع امتصاصه. وينتج من عملية الامتصاص هذه أن يكثر فى الضوء المنعكس عن الأشياء بعض الموجات المعينة تبعا لطبيعة هذه الأشياء. وخصائص هذه الموجات الضوئية المنعكسة من الأشياء هى التى تحدد لونها".[1]

وعن اللون الأبيض يرى ابن سينا أنه يتكون من الهواء والضوء، وشفافية اللون تتحلل فتصبح أجزاء صغيرة تتجمع على السطح فتعكس اللون الأبيض. يقول ابن سينا: "اللون الأبيض يتكون من الهواء والضوء، وأن الأسود تكونه من ضد ذلك، وأن حدوث اللون الأبيض هو من الشفاف إذا انقسم إلى أجزاء صغار ثم ارتكم فتقبل سطوحها النور فتضئ، لأنها شفافة يؤدى بعضها إضاءة بعض ، ولأنها صغار يكون ذلك فيها كالمتصل، ولأن المشف لا يرى إلا بلون غيره ، فإن شفيفها لا يرى ، لكن العكسوس عن السطوح المتراكمة منها ترى متصلة فيرى الجميع أبيض. ولهذا ما كان زبد الماء أبيض بمخالطة الهواء، والثلج أيضا أبيض لأنه أجزاء صغار جامدة شفافة خالطها الهواء ونفذ فيها الضوء، والبلور المسحوق والزجاج المسحوق لا يشف، وأى هذه اتصلت سطوحها اتصالا لا يبطل به انفراد كل شخص منها بنفسه عادت شفافة، والشفاف الكبير الحجم إذا عرض فيه شق رمى ذلك الموضع منه إلى البياض".[2]

---

[1] علم النفس الحربى للدكتور عثمان نجاتى ص ٦٣ نقلا عن : الإدراك الحسى عند ابن سينا ص١٢٠.

[2] الشفاء لابن سيناء ص ٩٥.

والألوان تتكون من اللون الأبيض، وعندما يتحلل هذا اللون بواسطة منشور زجاجي إلى سبعة ألوان هى الأحمر والبرتقالى والأصفر والأخضر والأزرق والنيلى والبنفسجي وهذه الألوان تكون مرئية . إلا أن هناك أشعة غير مرئية وهى الأشعة تحت الحمراء، وفوق البنفسجية "يحتوى ضوء الشمس على مرئى يمكن أن تراه العين وهى سبعة ألوان ، وضوء غير مرئى وهو لا يرى بالعين المجردة ، وينقسم إلى أشعة تحت الحمراء ولها تأثير حرارى تجعل الانسان يشعر بالذفء إذا تعرض لها فترة طويلة، وأشعة بنفسجية لها تأثيرات كيميائية على الأطفال المصابين بالكساح ولين العظام".[1]

هذا فى حين أن ابن سينا يرى أن الألوان تتكون من تداخل لونين الأبيض والأسود بنسب معينة يتكون منها باقى الألوان.

يقول ابن سينا: "تركب الألوان فيكون البياض والسواد إذا اختلطا وحدهما كانت الطريقة هى طريقة الاغبرار لا غير، فإن خالط السواد ضوء فكان مثل الغمامة التى تشرق عليها الشمس، ومثل الدخان الأسود تخالطه النار ، كان حمرة إن كان السواد غالبا ، أو صفرة إن كان السواد مغلوبا وكان هناك غلبة بياض مشرق ، ثم إن كان هناك صفرة خلطت بسواد ليس فى أجزائه إشراق حدثت الخضرة. وبالجملة إذا كان الأسود أبطن والمضئ أظهر والحمرة بالعكس ، ثم إن كان السواد غالبا فى الأول كانت قتمة ، وإن كان السواد غالبا فى الثانى كانت كراثية تلك الشديدة التى لا اسم لها، وإن خلط ذلك ببياض كانت كهوبة زنجارية ، وإن خلط بالكراثية سواد وقليل حمرة كانت نيلية ، وإن خلطت بالحمرة نيلة كانت أرجوانية. فبهذا يمكن تأليف الألوان سواء كان بإمتزاج الأجرام

---

[1] تبسيط العلوم للدكتور عدلى كامل مزج ص ١٠٩.

أو بإمتزاج الكيفيات، ولو كانت هـذه لا تكـون إلا بـاختلاط الأجسـام. فالألوان إذن موجودات وليس وجودهـا أنـها أضـواء، ولا الأضـواء ظهورات لها ، ومع ذلك هى مما هى بالفعل بغير الأضواء".[1]

وأى لون لا يمكن مشاهدته إلا إذا ألقى عليـه الضـوء وبالتـالى يمكن رؤيته، وأى جسم يظهر بلون معين ، فإنه يمتـص كـل الألـوان الأخرى ما عدا لونه فقط فهو يعكسه ، فمثلا عندما نـرى وردة صفـراء فإنها تمتص جميع الأشعة ماعدا اللون الأصفر فإنها تعكسه فتظهر لنا بهذا اللون وعلى ذلك يمكن قياس أى جسم ملون.

ابن الهيثم*

لقد كان لابن الهيثم فى كتابه "البصريات" موقف مخالف لأولئـك الذين أنكروا وجود اللون وجودا حقيقيا ، وأعلنوا أنه مجرد مظهر يتوسـط العين ومصدر النور فهو يرى : "أن ظهور اللون يتأثر بالفعل بنوع النـور الذى يحمله وأن نفس اللون قد يتحول طبقا لدرجة النور المتاح، ومع ذلـك يظل للون وجود المستقل. وقد كشف شارحه كمال الدين الفارسى الصلـة الأساسية بين النور واللون ففى الظلمة توجد الألوان بالقوة فـى الأجسـام

---

[1] الشفاء ص ٩٩ ،١٠١.

* الحسن بن الهيثم توفى عام ٤٣٠هـ - ١٠٣٩ م كان معاصرا لابن سينا. يعتبر منشئ علم الضـوء وله مؤلفات فى الضوء وعلم المناظر. وكتابة المناظر ظل مرجعا فريدا لعدة قرون . تميزت دراساته بالتجربة ودقة الملاحظة ، تحقق من أن الضوء ينشأ من المرئيات ليسقط على العين حيث يتم الرؤيـة ولا ينبعث من العين ، وضع القوانين الأساسية لانعكاس وانكسار الضوء إلى غير ذلك. لـه أيضـا ملاحظات يعتد بها فى الإدراك الحسى عامة والادراك البصرى خاصة، فقد سـبق علمـاء النفـس المعاصرين إلى إثبات ما للحكم والمقارنة وعمل الذهن باختصار من شأن فى الإدراك الحسى ، ولـه فى الضوء والرؤية آراء تقترب مما جاء به فيبير (weber) حديثا.
انظر: فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقيه للدكتور إبراهيم مدكور ١٣٢/١.

الملونة ، وتتحول إلى ألوان بالفعل حين يسلط الضوء على هذه الأجسام".[1]

هذا ولا يظهر اللون إلا بوجود وسط وهو الضوء فاللون "ظاهرة فيزيائية مصدرها الضوء كطاقة متحركة ، والضوء يتكون من إشعاعات عديدة ، كل منها يعطينا إحساسا بلون معين، ومن ثم فمن النادر غياب اللون تماما إلا فى حالات الظلمة التامة، وينم عن ذلك أن اللون والضوء متلازمان فى آن واحد. وبدون الضوء لانرى اللون ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى عالم الرياضيات والفيزياء الإنجليزى إسحق نيوتن فى اكتشاف ألوان الطيف أو قوس قزح الذى يبدأ باللون الأحمر وهو أطول الموجات حيث يبلغ طول موجته ٧٦٠ ميللى ميكرون ، وينتهى باللون البنفسجى وهو أقصر الموجات طولا ويبلغ طول موجته ٤٠٠ ميللى ميكرون. وترى العين الألوان وتميزها بالرغم من أن الأجسام لا ينبعث منها ضوء، ولكن الضوء سواء كان ضوء الشمس أو ضوءا صناعيا يسقط على الأجسام ثم ينعكس إلى العين فى شكل موجات طويلة مختلفة، ثم إلى المخ فيتم اعطاء كل طول موجى اللون المميز له. وبالتالى تتمكن العين من تمييز الألوان، حيث يمكن للعين العادية تمييز حوالى مائة وثمانين درجة من اللون، ولكن لا يستطيع الشخص المتوسط أن يعطى لها أكثر من ثلاثين لفظا ".[2]

(١) موجز دائرة المعارف الإسلامية ٨٨٦٦/٢٨ ، وانظر كتاب المناظر للحسن ابن الهيثم.

(٢) تأسيس وتنسيق المنزل للدكتور بدر الدين مصطفى ص٥٧.

المتكلمون والألوان :

اللون عند المعتزلة :

لقد اهتم المعتزلة وهم يدافعون عن العقيدة الدينية بالبراهين العقلية بمشكلة الأجسام المادية وكيفية إدراك الحواس. هذا مع اختلاف في وجهات نظرهم فى مسألة الألوان بإعتبارها عرضا من الأعراض.

يرى النظام استحالة رؤية الأعراض . إلا أن الإنسان لا يرى من الأعراض إلا الألوان فقط . وقد كان النظام لا يثبت من الأعراض إلا الحركة فقط . والإدراك عند النظام يتم "بمداخلة الحاسة فى المحسوس، فالمدرك للشئ إنما يدركه بأن يطفر للبصر إلى المدرك فيداخله. والإنسان لا يدرك المحسوس إلا بالمداخلة والاتصال والمجاورة. وحكى عنه زرقان أنه قال: إن الإنسان يدرك على المداخلة الأصوات والألوان".[1]

هذا ولقد عرض الجوينى لآراء بعض المنتمين للإسلام المجوزين عرو الجواهر عن بعض أجناس الأعراض أو كلها فقال: "وهؤلاءهم: أبو الحسين الصالحى الذى ذهب إلى جواز تعرى الجواهر عن جميع الأعراض . وافترق المعتزلة البصريون والبغداديون " فصار البصريون إلى منع تعرى الجواهر عن الأكوان ، وتجويز عروها عما عداها من الأعراض، وصار الكعبى ومتبعوه - وهم البغداديون - إلى منع تعرى الجواهر عن الألوان ، وتجويز تعريها عما عداها من الأعراض "[2]

---

[1] مقالات الإسلاميين للأشعرى ٢ / ٤٧ ، ٤٤ نقلا عن : مذاهب الإسلاميين للدكتور عبد الرحمن بدوى ١/ ٢٥٦ وما بعدها.

[2] انظر : الشامل ص ٩٨ وما بعدها.

ولقد قام الجوينى بالرد على الصالحى فقال: "جوزت تعرى الجواهر عن الأعراض، فكيف تستدل على حدوث الجواهر؟ إذ لا سبيل إلى معرفة حدوثها إلا بالأعراض، وكل مذهب يسد باب الاستدلال على حدوث الجواهر فهو مردود".[1]

أما العلاف فقد تحدث عن الأعراض ورأى أنها من الأشياء التى يتوقف عليها إثبات حدوث العالم. يقول الدكتور مصطفى الغرابى فى كتابه أبو الهزيل العلاف: "من الأشياء التى يتوقف عليها حدوث العالم عند أبى الهذيل الأعراض، لأنها تقبل التغير وكل ما يقبل التغير فهو حادث فالأعراض حادثة ويكون ما حلت به وهو الأجسام حادثة والحادث لا بد أن يكون مركبا من حادث. فالجواهر الفردة إذن حادثة ولقد أطال أبو الهذيل فى الكلام عن الأعراض فهو يقول : إن الأعراض تنقسم بالزمان أو المكان أو بالفاعلين وأن لون الجسم ينقسم على عدد أجزائه وكل منقسم حادث فالأعراض حادثة. وهو يفرق بين الأجسام والأعراض فيقول قد يكون عرضان فى مكان واحد وذلك كالسواد والطول مثلا أو البياض والقصر ولا يجوز كون جسمين فى مكان واحد، فهو إذن يقرر نظرية عدم تداخل الأجسام ، وكذلك يطبق نظريته فى الأعراض على أفعال الإنسان".[2]

ثم يتحدث عن الأعراض وأنها ترى كما ترى الأجسام ، وتلمس أيضا كما تلمس الأجسام ما عدا الألوان . يقول الدكتور مصطفى الغرابى: "جرى البحث على الأعراض أبا الهذيل أيضا إلى إلى أن يتكلم فى هل الأعراض ترى كما ترى الأجسام ، وكذلك تلمس أم لا؟ وانتهى به البحث إلى أن الألوان ترى كما ترى الأجسام. وقال هذا أيضا فى الحركة

---

[1] الشامل ص ١٠٤ .

[2] أبو الهذيل العلاف للدكتور على مصطفى الغرابى ص ٥٩.

والسكون باعتبارهما عرضين ، وكذلك الاجتماع والافتراق والقيام والقعود والاضطجاع، وإن الإنسان يرى الحركة إذا رأى الشئ ساكنا برؤيته له ساكنا ، وكذلك يرى الألوان برؤية الشئ الملون".[1]

الألوان عند الأشاعرة:

يعرض الجوينى للحديث عن مصادر المعرفة فيرى أنها العقل والحواس والنفس فيقول : "إن الحواس مصدر لعلم يقينى، فالألوان المدركة بالبصر ، والأصوات المدركة بالسمع، والطعوم المدركة بالذوق، والروائح المدركة بالشم، والحرارة والبرودة المدركتان باللمس كل ذلك من العلم الذى يرقى إلى مرتبة الضروريات من حيث إنه أساس للمعرفة النظرية"[2]

ثم يذكر صاحب كتاب مذاهب الإسلاميين مذهب أهل الحق فيقول: "فمذهب أهل الحق إن الجواهر لا تخلو من الأعراض. والأعراض إما أن يجمع ضروبا. منها اسم واحد ثم هى مختلفة متضادة، أو لا توصف بالاختلاف."فأما ما يوصف بالاختلاف والتضاد فمعظم الأعراض كاللون والطعم والكون والرائحة : فكل قبيل من هذه الأجناس يتناول ضروبها اسم واحد ، وهى مختلفة متضادة . ثم اسم اللون ينطبق على مختلقات متضادة كالسواد والبياض والحمرة والصفرة . ولا يجوز خلو الجوهر عن ضرب من هذه الضروب ، ولا يجوز أن يحتمل ضربين منهما معا... " [3]

---

[1] المرجع السابق ص ٦٠.

[2] الإرشاد إلى قواطع الأدلة ص١٢ نقلاً عن علم الكلام للدكتور أحمد صبحى ٢/ ١٥٢.

[3] الشامل ص ٩٨.

فالألوان لها خاصيتان عنده بالنسبة للأجسام ، فالأجسام لا تنفك عن الألوان ، أيا كان ذلك اللون الذى تتصف به، أو يحل بها . والجسم الواحد لا يحل به لونان فى وقت واحد . وهو يقصد بالجسم الواحد المكان الواحد من الجسم . فالمكان الواحد لا يحل به أكثر من لون فى وقت واحد وإلا استحال وصفه بلون معين إن حل فيه لونان.

ابن حزم :

لقد تحدث "ابن حزم" فى كتابه "الفصل فى الملل والأهواء والنحل" عن الألوان وذكر أن الماء كله أبيض إلا أنه يكتسب لونا بما يضاف إليه لفرط صفائه. وأن الهواء غير مرئى لأنه لا لون له. وكذلك النار غير مرئية.

يقول ابن حزم : "الماء كله أبيض، إلا أنه يكتسب لونا بما استضاف إليه لفرط صفائه فيكتسى لون إنائه أو ما هو فيه وهو أبيض لبراهين:-

أحدها: أنه إذا صب فى الهواء بهرق ظهر أبيض صافى البياض.

والثانى : أنه إذا جمد فصار ثلجا أو بردا ظهر أبيض شديد البياض"[1]

أما بالنسبة للهواء فإنه غير مرئى لأنه لا لون له ، ولا يرى إلا الألوان. وقد زعم البعض إن عدم رؤية الهواء بسبب انطباقه على البصر ولا شك إن هذا غير صحيح، لأن الإنسان عندما يغوص فى الماء ويفتح عينيه فإنه يرى الماء رغم انطباقه على البصر.

يقول ابن حزم: "الهواء لا لون له أصلا لذلك لا يرى ، لأنه لا يرى إلا اللون وقد زعم قوم أنه إنما لا يرى لانطباقه على البصر وهذا فاسد جدا . وبرهان ذلك أن المرء يغوص فى الماء الصافى ويفتح عينيه

---

[1] الفصل فى الملل والأهواء والنحل ٥/٨٦.

فيه فيرى الماء وهو منطبق على بصره لا حائل بينهما، ولا يرى الـــهواء فى تلك الحال"[١]

وأما عن النار فلا ترى لأنه لا لون لها فى الكرة السماوية ، وإنما ما يرى من ألوان عند حرق الخشب أو فتيلة المصباح أو أى جسم آخـــر يرجع إلى مقدار ما تحتويه هذه الأجسام من رطوبة.

يقول ابن حزم فى هذا الإطار: "وأما النار فلا ترى أيضا لأنـــه لا لون لها فى فكلها. وأما المرئية عندنا فى الحطب والفتيلـــة وســائر مــا يحترق فإنما هى رطوبات ذلك المحترق يستحيل هواء فيه نارية فتكتســب ألوانا بمقدار ما تعطيها طبيعتها فتراها خضـــراء ولا زورديــة وحمــراء وبيضاء وصفراء. وهذا يعرض للرطوبات المتولد منـــها دائــرة قــوس قزح".[٢]

ولقد دحض فقيه قرطبة ما قاله القدماء الذين عرفوا الأبيض بأنـــه لون يفرق البصر والأسود لون يجمع البصر، وتحدث عــن المــراد مــن تجميع البصر.

يقول ابن حزم: "ومعنى يجمع البصر أنه يقبضه فى داخل النــاظر ويمنع من انتشاره ومن تشكل المرئيات وإذا هذا معنى القبض بلا شـــك ، فهو معنى منع البصر والإدراك وكفه ومن هذا سمى المكفوف مكفوفـــا ، فإذا السواد يمنع البصر من الانتشار ويقبضه عن الانبساط ويكفـــه عــن الإدراك"[٣]

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق ٨٧/٥.

أما الأسود عند ابن حزم فليس بلون لأنه غير مرئى، لأن الإدراك الحسى لا يتحقق إلا عبر امتداد يضاف للبصر. لأن العين لا ترى سوى ما هو ملون، والأسود ليس لونا، إنه مجرد ظلمة أو هو لا وجود أو فقدان اللون ورؤية البصر. وحين نعتقد أننا نرى الأسود، فهذا يعنى أننا خاضعين لخداع بصرى. فحين نصف شخصا ما ، أو غرابا أو رداء بأنه أسود فهذا بحكم العادة وعلى سبيل المجاز. وواقع الأمر أن كل جسم من هذه الأجسام له لونه الخاص . وهو لون غير أسود.

يقول ابن حزم: "السواد ليس لونا إذ اللون مرئى ولا بد وما لم يرو فليس لونا. وهذا برهان عقلى ضرورى. وبرهان آخر حسى وهو أن الظلمة إذا اطبقت فلا فرق حينئذ بين المفتوح العينين السالم النظرين وبين الأعمى المنطبق والمسدود العينين سدا أو كفا فإن ذلك كذلك فالظلمة لا ترى ومن الباطل الممتنع أن تكون ترى الظلمة وبالحس نعلم أن المنطبق العينين فيها بمنزلة واحدة من عدم الرؤية ومع المفتوح العينين فيها والظلمة هى السواد نفسه فمن ادعى أنهما متغايران فقد كابر العيان وادعى مالا يأتى عليه بدليل أبدا ونحن نجد أن لو فتح فى حائط بيت مغلق كوتان ثم جعل على أحداهما ستر أسود وتركت الأخرى مكشوفة لما فرق الناظر من بعد بينهما أصلا ولو جعل على أحداهما ستر أحمر أو أصفر أو أبيض لتبين ذلك للناظر يقينا من بعد أو قرب وهذا بيان أن السواد والظلمة سواء. وبرهان آخر حسى وهو أن خطوط البصر إذا استوت فلا بد من أن تقع على شئ ما لم يقف فيه مانع من تماديها ونحن نشاهد من بين يديه ظلمة أو هو فيها لا يقع بصره على حائط إن كان فى الظلمة وسواء كان فيها حائط مانع من تمادى خط البصر أو لم يكن فصح يقينا أن الظلمة لا ترى بل هى مانعة من الرؤية والظلمة هى السواد والسواد هو الظلمة لم يختلف قط فى هذا اثنان لا بطبيعة ولا بشريعة

ولا فى معنى اللغة ولا بالمشاهدة فقد صح أن السواد لا يرى أصلا وأنه ليس لونا".[1]

وأما من عارض الرأى السابق ودلل بأنه لا سواد يرى فى مشاهدة لون الثياب ولون الغراب ولون الرجل الزنجى فالرد يكون بأن تلك الأشياء السوداء ليس لونها أسودا ، ولكن لونها أسود مجازا فاللون الأسود لون مشترك بين الظلمة وتلك الأشياء ذا ، اللون الأسود، فكل ظلام سواد ، وليس كل سواد ظلام.

يقول ابن حزم : "قال بعض أصحابنا السواد غير الظلمة، وهو لا يرى لأن الزنجى والغراب والثوب ليس شئ من ذلك أسود، وكل ذلك يرى . ولون كل ما ذكرنا لون غير السواد إلا أنه سمى باسم السواد مجازا. وقال بعضهم السواد اسم مشترك يقع على الظلمة ويقع على لون الزنجى والغراب والثوب فكل ظلام سواد وليس كل سواد ظلام . فإذا عنيت بالسواد لون الزنجى والغراب والثوب فهو يرى وهو غير الظلمة ، وإذا عنيت بالسواد الظلمة فهو لا يرى".[2]

من فلسفة الألوان والجمال عند الإمام الغزالى :

بما أننا نتحدث عن الألوان باعتباره من الجماليات المحسوسة فإنه لا بد وأن نعرض بإيجاز لما ذكره الإمام الغزالى من حديث عن الجمال فلقد كان للإمام الغزالى حديث مستفيض فى كتابة "إحياء علوم الدين" تحت عنوان: "كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا" بالنسبة لموضوع الجمال. أما بالنسبة لنظرية الفن فقد تحدث عنه فى الكتاب الخاص بـ "آداب السماع والوجد".

---

[1] المرجع السابق ٨٧/٥.

[2] المرجع السابق ٨٩/٥.

لقد بحث الإمام الغزالى موضوع الجمال من ناحية ارتباطه بالمحبة، فالجمال دافع للحب وسبب من أسبابه إلا أن الحب المرتبط بالجمال لا ينتظر من ورائه فائدة ولا منفعة، فالإحساس بالجمال عند الغزالى مشابها لما ذهب إليه كانط منزه عن العرض.[1]

يقول الإمام الغزالى فى هذا الاطار: "يحب الشئ لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته بل تكون ذاته عين حظه. وهذا هو الحب الحقيقى البالغ الذى يوثق بدوامه وذلك كحب الجمال والحسن فإن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال ، لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة ، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها . ولا تظن أن حب الصورة الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصورة الجميلة لأجلها وإدراك نفس الجمال أيضا لذيذ ، فيجوز أن يكون محبوبا لذاته. وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجارى محبوب لا ليشرب الماء وتؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية . وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يعجبه الخضرة والماء الجارى".[2]

ولقد عدد الإمام الغزالى الأشياء الجميلة فذكر منها الفرس الجميل والثوب الجميل والصوت الجميل والإناء الجميل إلى آخره. إلا أنه تساءل عن المبدأ المشترك بينهما - كما تساءل أفلاطون من قبل على لسان سقراط فى "هيباس الأكبر".

وعلى ضوء هذا ما معنى الحسن الذى تشترك فيه هذه الأشياء؟

لا شك فى أنه يوجد فى الصور الجميلة التى تحقق كمال الشئ فى ذاته وأدائه.

---

[1] انظر : علم الجمال للدكتورة وفاء محمد إبراهيم ص ٤٢.

[2] إحياء علوم الدين ٤/٢٩٠.

يقول الإمام الغزالى: "كل شئ فجماله وحسنه فى أن يحضر كماله اللائق به الممكن له. فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو فى غاية الجمال، وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر. فالفرس الحسن هو الذى جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيركر وفر عليه. والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها"[1]

هذا ولقد كان الإمام الغزالى أسبق من علماء الجمال المعاصرين وبخاصة فى فن العمارة الذين تحدثوا عن أن الجمال هو ملاءمة الشئ لوظيفته ، وأن الصورة الفنية لابد أن ترتبط بأدائها الملائم لما أبدعت من أجله. كما جعل الإمام الغزالى مفهوم الجمال أوسع مما ذهب إليه الآخرون حتى أنه شمل الجمال المعنوى أيضا.[2]

وفى هذا المعنى يقول الإمام الغزالى: "فاعلم أن الحسن والجمال موجودان فى غير المحسوسات إذ يقال هذا خلق حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والمروءة وسائر خلال الخير".[3]

وللجمال عند الإمام الغزالى مستويان : ظاهر يدرك بالحواس، وباطن يدرك بنور البصيرة. والاقتصار على تذوق مستوى واحد هو تصور من قبل المدرك، وعدم بلوغه للتجربة الجمالية فى تمامها، لأن التجربة الجمالية هى استيعاب كل أنواع المحسوسات الجميلة والنفاذ إليها بالبصيرة والقلب للوصول إلى المناسبة الخفية بينها وبين مبدعها،

---

[1] المرجع السابق ٤/٢٩١.

[2] انظر: علم الجمال للدكتورة وفاء محمد إبراهيم ص٤٣.

[3] إحياء علوم الدين ٤/٢٩١.

وهى الحب الذى يميل بالملتقى إلى الرغبة فى إبداع الجمال وتذوقه فى أكمل تحقق له، بعد معرفته للخالق الواحد، لأن المعرفة هى شرط المحبة والجمال. وبالتالى يمكن القول بأن الخبرة الجمالية عند الغزالى لون من ألوان المعرفة الإنسانية لذاتها ولخالقها تتم بواسطة ما يسميه الغزالى "بالنور أو الحدس" بالإضافة إلى أن الخبرة الجمالية عنده - وخاصة خبرة السماع - تتجاوز بها النفس همومها وأحزانها، فهى تحرك القلب وتبهجه وتؤثر فيه تأثيرا عجيبا ، فمن الأصوات ما يفرح ومنها ما يحزن ومنها ما ينوم ومنها ما يضحك ويطرب ، ومنها ما يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها باليد والرجل والرأس.[1]

وعن نظرية الفن عند الإمام الغزالى فقد تحددت فى الكتاب الخاص بـ "آداب السماع والوجد" فبعد أن فند حجج المنع والتحريم للغناء والموسيقى ، وحد بين النفس السوية وتذوق الفنون والجمال حيث قال: "من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج ليس له علاج"[2] وكذلك رأى الإمام الغزالى أن القلب الإنسانى ينطوى على أسرار وأحوال، وأن الألحان والأنغام هى التى تظهر تلك الأحوال، وذلك من خلال التشابه الإيقاعى بين الأنغام الموسيقية والأحوال النفسية، وحدد كذلك أنواعا من الموسيقى لها تأثير الترقى والتهذيب على النفس ، والحث على الشجاعة والقتال.

يقول الإمام الغزالى : " إن فى أعماق النفس الإنسانية شوقا نحو شئ عظيم مجهول، والموسيقى هى التى تحرك هذا الشوق وتؤججه ".[3]

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/٢٤٢ نقلا عن : علم الجمال ص٤٣.

(٢) إحياء علوم الدين ٢/٢٧٣ .

(٣) إحياء علوم الدين ٢/ص٢٤٤ – ٢٤٧ نقلا عن علم الجمال ص ٤٤.

أثر البيئة* فى اختلاف الألوان :

لا شك فى أن للبيئة دورا كبيرا وأثرا فعالا فى تكوين الأخلاق واختلاف الألوان. ولقد أكد ذلك ابن خلدون أثناء حديثه عن سكان المناطق المعتدلة حيث قال : "وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا".[1]

وقد توهم البعض إلى أن السُّودَانَ هم ولد حام بن نوح واتصفوا بلون السواد لدعوة كانت عليه ، ظهر أثرها فى لونه. وفى جعل الرق فى عقبه.

ويورد ابن خلدون هذا الزعم حيث يقول: "وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات، أن السُّودَانَ هم ولد حام بن نوح، اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه، ظهر أثرها فى لونه، وفيما جعل الله من الرق فى عقبه ، وينقلون فى ذلك حكاية من خرافات القصاص ، ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع فى التوراة

---

* يقصد بالبيئة كل ما يحيط بالكائن الحى من مؤثرات أو مثيرات تؤثر فى سلوكه وفى نموه وفى شخصيته، وفى قيمه واتجاهاته وميوله وعقائده وأفكاره. وللبيئة شقان: شق مادى - طبيعى - أو جغرافى يتمثل فى الموقع والمناخ والسطح ومظاهر الحضارة المادية . وشق اجتماعى يتمثل فى الجماعات البشرية التى يتفاعل معها ، كالأسرة والمدرسة والجامعة والمسجد وزملاء العمل . وتتضمن البيئة كل عناصر الثقافة السائدة فى المجتمع ، ومنها العادات والتقاليد والقيم والمثل والمعايير والأعراف والقواعد والنظم والقوانين والشرائع واللغة والدين والعلوم والفنون والآداب والمهن والحرف. والبيئة بشقيها تؤثر فى الفرد وتدفعه إلى السلوك السوى أو السلوك الإجرامى . ويميل علماء النفس إلى التركيز على العوامل البيئية فى مقابل العوامل الوراثية، لأننا نستطيع أن نعدل بيئة الفرد ونحسنها ، بحيث تقود إلى تكيفه وإصلاحه. أما تأثيرنا فى الوراثة فيما يزال محدودا حتى فى ضوء علم الهندسة الوراثية ومحاولة تحسين الجينات.

انظر : دائرة المعارف إعداد الدكتور عبد الرحمن العيسوى نقلا عن : مجلة الفيصل العدد ٢٤٢ ص ١٠٢.

[1] مقدمة ابن خلدون ص ٧٦ فصل فى المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء فى ألوان البشرر والكثير من أحوالهم.

وليس فيه ذكر السواد ، وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيدا لولد أخوته لا غير".

ولقد رد ابن خلدون هذا الزعم حيث ذكر أن مسألة السواد أو البياض إنما هى من أثر الحر والبرد "وفى القول بنسبة السواد إلى حلم غفلة عن طبيعة الحر والبرد، وأثرهما فى الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات، وذلك أن هذا اللون شمل أهل الإقليم الأول والثانى من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب فإن الشمس تُسَامِتُ رؤوسهم مرتين فى كل سنة قريبة إحداهما من الأخرى فتطول المسامتة عامة الفصول، فيكثر الضوء لأجلها ، ويلح القيظ الشديد عليهم ، وتسود جلودهم لإفراط الحر. ونظير هذين الإقليمين مما يقابلهما من الشمال، الإقليم السابع والسادس شمل سكانهما أيضا البياض من مزاج هوائهم، للبرد المفرط بالشمال ، إذ الشمس لا تزال بأفقهم فى دائرة مرأى العين أو ما قرب منها، ولا ترتفع إلى المسامتة ولا ما قرب منها، فيضعف الحر فيها، ويشتد البرد عامة الفصول ، فتبيض ألوان أهلها وتنتهى إلى الزعورة ، ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون. وبرش الجلود وصهوبة الشعور."[1]

يقول ابن خلدون : " وقد نجد من السُّودَان أهل الجنوب من يسكن الربع المعتدل أو السابع المنحرف إلى البياض ، فتبيض ألوان أعقابهم على التدرج مع الأيام ، وبالعكس فيمن يسكن من أهل الشمال ، أو الرابع بالجنوب فتسود ألوان أعقابهم . وفى ذلك دليل على أن اللون تابع لمزاج الهواء ".(٢)

(١) المرجع السابق ص ٧٧ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق ص ٧٨

قال ابن سيناء فى أرجوزته فى الطب :-

بالزنج حر غير الأجسادا حتى كسا جلودها سوادا

والصقلب اكتسبت البياضا حتى غدت جلودها بضاضا

يقول ابن خلدون : " ولما رأى النسابون اختلاف هذه الأمم بسماتها وشعارها حسبوا ذلك لأجل الأنساب، فجعلوا أهل الجنوب كلهم السُّودَان من ولد حام وارتابوا فى ألوانهم فتكلفوا نقل تلك الحكاية الواهية - وهى أن سواد لون حام كان بسبب دعوة نوح عليه - . وجعلوا أهل الشمال أو أكثرهم من ولد يافث وأكثر الأمم المعتدلة وأهل الوسط المنتحلين للعلوم والصنائع والملل والشرائع والسياسة والملك من ولد سلم. وهذا الزعم وأن صادف الحق فى انتساب هؤلاء فليس ذلك بقياس مطرد، إنما هو إخبار عن الواقع ، لا أن تسمية أهل الجنوب السُّودَان والحبشان من أجل انتسابهم إلى حام الأسود [1]

(١) المرجع السابق ص ٧٩

هذا ولقد كان لعلماء المسلمين القدامى رأى فى مسألة تأثير البيئة الطبيعية (كالمناخ) على المستوى الثقافى حيث ذكر صاعد الأندلس أثر البيئة الطبيعية على الأمم وفى قدرة سكانها على تحصيل المعرفة واكتساب العمل، ورد سبب التفوق العلمى والتقدم الفكرى إلى عوامل بيئية. كما رد السبب فى عدم اهتمام الأمم الموجودة فى بلاد الشمال - كالروس - بالعلوم فى عصره إلى تأثيرات بيئية أيضا .

يقول صاعد الأندلس :" وأما سائر هذه الطبقة التى لم تعن بالعلوم، فهم أشبه بالبهائم منهم الناس ، لأن من كان منهم موغلا فى بلاد الشمال ما بين آخر الأقاليم السبعة إلى نهاية المعمورة فى الشمال ، فإفراط بُعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم بردّ هواءهم وكثف جوّهم فصارت لذلك أمزجتهم باردة ، وأخلاقهم فجة فعظمت أبدانهم وابيضت ألوانهم وانسدلت شعورهم ، فعدموا بهذا دقة الإفهام وثقوب الخواطر وغلب عليهم الجهل والبلادة وفشا فيهم العمى والغباوة، كالصقالبة والبلغر ومن اتصل بهم. ومن كان منهم ساكنا قريبا من خط معدل النهار وخلفه إلى نهاية المعمور فى الجنوب ، فطول مقاربة الشمس لِسمتْ رؤوسهم أسخن هواءهم وسخن جوههم ، فصارت لذلك أمزجتهم حارة وأخلاقهم محرقة فاسودت ألوانهم ، وتغلغلت شعورهم فعدموا بهذا رجاحة الأحلام وثبوت البصائر ، وغلب عليهم الطيش والحمق والجهل، مثل من كان من السودان ساكنا بأقصى بلاد الحبشة والنوبة والزنج وغيرها ". [1]

---

[1] طبقات الأمم لصاعد الاندلس ص ١١.

نرى هنا من خلال النص أن سكان المناطق الشمالية " أمزجتهم باردة وأخلاقهم فجة فعظمت أبدانهم وابيضت ألوانهم " وعلى النقيض سكان المناطق الجنوبية " أمزجتهم حارة وأخلاقهم محرقة فاسودت ألوانهم".

و الألوان تجمل فى لونين الأبيض والأسود وينتج عنها ألوان أخرى ومنه حديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم : ـ " لافضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى " [1]. فليس الجنس أو اللون معيارا للتفاضل لكن التقوى والعمل الصالح . ويتجلى هذا واضحا فى قول عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرار .

واختلاف الألوان والألسن آية من آيات الله – تبارك وتعالى – يقول الحق فى محكم آياته (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين)[2]

فاللون آية من الله ويرجع إلى حكمة الله والحكمة اختلاف الناس فى الفقر والغنى والصحة والمرض ، وكذلك فى السلطة حاكم ومحكوم. وهناك أيضا من يتصف بطول العمر والآخر بقصر العمر ... إلخ بالإضافة إلى ما سبق من اختلاف الألوان . لكن لا ينبغى أن يأخذ الألوان أكثر مما ينبغى أو يستحق فهو حالة من حالات الاختلاف اقتضتها حكمة الله – تعالى– فالبشر فيهم القوى والضعيف، الغنى والفقير، الطويل والقصير، الحاكم والمحكوم. وكذلك منهم الأبيض والأسود منهم من يتكلم العربية والفارسية وغيرها من اللغات الأخرى .

---

[1] الحديث بتمامه فى مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/٤١١.

(٢) الآية (٢٢) من سورة الروم.

لكن الناس درجوا على أن الغنى أفضل من الفقير، وكذلك الأبيض[1] افضل من الأسود، وذلك نظرا لأن العبيد دائما مرتبطون باللون الأسود، والمناطق الحارة متصفة بالفقر، والرقيق أغلبهم من السود فارتبط فى أذهان الناس هذه المعادلة التى تربط أو تقوم على أن السيد عادة يكون من البيض والعبيد من السود ، فهنا جار الأبيض على الأسود .

لكن ماذا لو انقلبت الآية ... فماذا يحدث

وإن انقلابها ليس على الله - تعالى بعزيز ...؟؟!!

موقف الإسلام من التفاؤل والتشاؤم:

إن الألوان تشغل من الحياة قدرا كبيرا وحيزا لا يستهان به . وقد شغلت الألوان جانبا كبيرا من وجدانات الناس ومشاعرهم يستوى فى ذلك المثقفون وأنصاف المثقفين وعوام الناس جميعا يمثل اللون فى حياتهم جانبا هاما على اختلاف فى قوة هذا التأثير قوة وضعفا. فكلما كان الإنسان مؤمنا ومثقفا ثقافة عالية ضعف تأثير الألوان فى نفسه ، وكلما قلت أو تدنت ثقافته ازداد ذلك التأثير قوة وشدة إلى حد أنه يصل عند البعض إلى مرتبة ترتبط ارتباطا وثيقا بالتفاؤل والتشاؤم .

---

[1] لاشك فى أن الإسلام لم يفرق بين العربى وغير العربى ولا بين الأبيض والأسود وإنما جعل معيار التفاضل بين الناس جميعا هو التقوى والعمل الصالح قال - تعالى - : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) من الآية (١٣) من سورة الحجرات. ولقد طبق الإسلام مبدأ عدم الأفضلية على أساس من الجنس واللون واجتث جذور العصبية التى كانت موجودة أيام الجاهلية . ولقد أنكر الرسول - صلوات الله عليه وسلامه - التفاخر بالأنساب عندما قال البعض لمسلم غير عربى يا ابن السوداء واعتبر ذلك من بقايا الجاهلية وقد كان ذلك فى القرن السابع الميلادى. إلا أنه مما يلفت النظر ويسترعى الانتباه أنه ونحن فى القرن العشرين وأوائل القرن الحادى والعشرين أن بعض الدول لم تستطع تطبيق هذا المبدأ العادل فمثلا فى الولايات المتحدة التى تدعى أنها صانعة الحضارة لا تزال هذه الفروق قائمة بين الناس على أساس اللون أو الجنس ، فالأبيض أفضل وأعلى وأسمى مرتبة من الأسود ، كذلك لا توجد مساواة بينهما أمام القانون ولا فى التمتع بالحقوق مع أنهما يحملان جنسية واحدة .

انظر : أعمال مؤتمر كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالأسكندرية " العولمة وموقف الفكر الإسلامى منها " ص ٧٧ وما بعدها.

وإذا قلنا التفاؤل (*) أو التشاؤم (*) فهذا يعنى الإقدام على العمل أو التراجع عنه فمثلا يتشاءم البعض عند رؤية الغراب الأسود أو القطة السوداء ، بل إن الأمر يتجاوز ذلك فالبعض يتشاءم أو يتفاءل عند رؤية شخص ما ... إلخ. فالمثقف لا يعطى وزنا للألوان فى مسألة التفاؤل، أما العوام فيكثر بينهم هذا . وهذا على المستوى العام أو فى الجملة ، ولكن يوجد على مستوى أقل فئات كثيرة من المثقفين ثقافة عالية ، يشغل التفاؤل والتشاؤم حيزا كبيرا من حياتهم .

وينبغى أن نشير هنا إلى موقف الإسلام من قضية التفاؤل والتشاؤم يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : " لا عدوى ولا طيرة والشؤم فى ثلاث فى المرأة والدار والدابة"[1] ويقول أبو هريرة سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : " لا طيرة وخيرها الفأل، قالوا : وما الفأل ؟ قال الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم " [2] ويقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : " لا عدوى ولا طيرة وخيرها الفأل الصالح الكلمة الحسنة[3] ويقول الرسول - صلى الله عليه وسلم :- " لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر". [4]

(*) أسباب التفاؤل كثيرة منها معرفة الله كما ينبغى ، معرفة الغاية والهدف من الخلق ، الثقة بالنفس والمنهج الإسلامى هذا بالإضافة إلى البيئة التى يعيش فيها الإنسان . أما آثار التفاؤل فهى مقاومة اليأس والقنوط والخوف ، والظفر بالعون الإلهى فى الدنيا والآخرة .

(*) أسباب التشاؤم والتطير الجهل بالله وماله من صفات ، الجهل بالنفس ومالها من ملكات وقدرات وطاقات ، عدم معرفة الهدف من خلق الكون ، البيئة ، عدم ادراك عواقب التطير . أما آثار التطير والتشاؤم فالقلق والاضطراب النفسى ، والقعود عن أداء العمل ، وحلول غضب الله وسخطه

[1] أخرجه البخارى "حاشية السندى كتاب الطب باب الطيرة م٢- ج٤- ص١٩

[2] المرجع السابق.

[3] المرجع السابق

[4] المرجع السابق باب لاهامة

وأصل التطير أن العرب فى الجاهلية كانوا يعتمدون على الطير ، فإذا خرج أحدهم لأمر ما ، فإن رأى الطير يطير يمنة تيمن به واستمر ، وإن رآه يطير يسرة تشاءم به ورجع، وربما كان أحدهم يهيج الطير ليطير فيعتمدها . فجاء الشرع بالنهى عن ذلك [1]

ولقد كان بعض عقلاء الجاهلية ينكر التطير ويتمدح بتركه .

يقول شاعر منهم :

ولقد غدوت وكنت لا أغدو على واق وحاتم

فإذا الأشائم كالأيا من والأيامن كالأشائم

كما يبين الرسول- صلى الله عليه وسلم- أن عاقبة من لم يتطير دخول الجنة عن ابن عباس- رضى الله عنهما- قال خرج علينا النبى- صلى الله عليه وسلم- يوما فقال : عرضت على الأمم فجعل يمر النبى معه الرجل والنبى معه الرجلان والنبى معه الرهط والنبى ليس معه أحد ورأيت سوادا كثيرا سد الأفق فرجوت أن يكون أمتى فقيل هذا موسى وقومه ، ثم قيل لى انظر فرأيت سوادا كثيرا سد الأفق فقيل لى انظر هكذا وهكذا فرأيت سوادا كثسرا سد الأفق فقيل هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب فتفرق الناس ولم يبين لهم ، فتذاكر أصحاب النبى – صلى الله عليه وسلم – فقالوا أما نحن فولدنا فى الشرك ولكنا آمنا بالله ورسوله ولكن هؤلاء هم أبناؤنا ، فبلغ النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال: " هم الذين لا يتطيرون ولا يسترقون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة بن محصن فقال أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال نعم ، فقام آخر فقال أمنهم أنا ؟ فقال : سبقك بها عكاشة ". [2]

---

(١) انظر: فتح البارى م ٢٨- ج١٠- ص ٢١٢.

(٢) أخرجه البخارى " حاشية السندى كتاب الطب باب من لم يرق م٢-ج٤- ص١٨

ولاشك فى أن مسألة التطير والتشاؤم شرك بالله وفى هذا يقـــول الرسول - صلى الله عليه وسلم -:" الطيرة شرك، وما منـــا إلا تطـير ، ولكن الله يذهبه بالتوكل "[1] ويقول صاحب فتح البارى أن قوله " وما منـــا إلا " من كلام ابن مسعود أدرج فى الخبر . وإنمـــا جعـل ذلـك شـركا لاعتقادهم أن ذلك يجلب نفعا أو يدفع ضرا . فكأنهم أشـــركوه مـع الله - تعالى - وقوله " ولكن يذهبه الله بالتوكل" إشارة إلى إن من وقع لـــه ذلـك فسلم لله ولم يعبأ بالطيرة أنه لا يؤاخذ بما عرض له من ذلك .

وعلى ذلك فلا ينبغى للمؤمن أن يعطى هذه الأمور وزنـــا ولكـن عليه أن يتوكل على الله ويأخذ بالأسباب يقول رســـول الله - صلـى الله عليه وسلم - : إذا تطيرتم فامضوا، وعلى الله فتوكلوا [2]

وفى حديث عروة بن عامر الذى أخرجـــه أبـو داود : ذكـرت الطيرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال " : أحســـنها الفـأل ولا ترد مسلما، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل لا يأتى بالحســـنات إلا أنـت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله " [3]

وورد فى فتح البارى قول للحليمى أن الرسول - صلى الله عليـه وسلم - " إنما يعجبه الفأل لأن التشاؤم سوء ظن بـالله -تعـالى- بغـير سبب محقق ، والتفاؤل حسن ظن به ، والمؤمن مأمور بحسن الظن بـالله -تعالى- على كل حال . وقال الطيبى : معنى الترخص فى الفأل والمنـع من الطيرة هو أن الشخص لو رأى شيئا فظنه حسنا محرضا على طلـب حاجته فليفعل ذلك. وإن رآه بضد ذلك فلا يقبلـه بـل يمضـى لسـبيله .

---

(١) فتح البارى م٢٨-ج١٠-ص٢١٣

(٢) أخرجه البيهقى فى الشعب نقلا عن : فتح البارى م٢٨-ج١٠-ص٢١٣

(٣) أخرجه أبو داود فى السنن كتاب الطب باب فى الطيرة ١٨/٤ وأورده ابن حجر فى فتح البـارى م٢٨-ج١٠-ص ٢١٤.

فلو قبل وانتهى عن المضى فهو الطيرة التى اختصت بأن تستعمل فى الشؤم " [1] وقد كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يحض على التفاؤل عن عائشة – رضى الله عنها ـ قالت : ما قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم ـ شعرا قط ، وما أتم إلا بيتا واحدا.

تفاءل بما تهوى يكن فلقما يقال لشىء كان إلا تحقق [2]

وعلى ضوء ما تقدم فالتفاؤل فى الإسلام ناشىء من الإيمان بالله – تعالى– والإيمان بالقضاء والقدر .

---

[1] فتح البارى م ٢٨– ج١٠– ص٢١٥.

[2] تاريخ بغداد ١٠/١٨٠.

ثبت بأهم المراجع

م	اسم المؤلف	اسم المرجع
١	إبراهيم (محمد إسماعيل)	القرآن وإعجازه العلمى – دار الفكر العربى.
٢	إبراهيم (د / وفاء محمد)	علم الجمال – مكتبة غريب.
٣	ابن حزم (أبو محمد على بن أحمد بن سعيد)	الفصل فى الملل والأهواء والنحل–مكتبة السلام العالمية.
٤	ابن خلدون (عبد الرحمن)	مقدمة ابن خلدون– دار الشعب.
٥	ابن سينا (أبو على الحسين بن عبد الملك)	الشفاء ـ تحقيق د/جورج قنواتى وسعيد زايد–الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٥هـ–١٩٧٥م.
٦	ابن هشام	السيرة النبوية– راجعه وقدم له طه عبد الرؤف سعد ـدار إحياء الكتب العربية.
٧	الجوينى (عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد).	الشامل فى أصول الدين– دار العرب. ١٩٨٩م.
٨	حجازى (د /عوض الله جاد)	المرشد السليم فى المنطق الحديث والقديم– دار الطباعة المحمدية– الطبعة الثانية.
٩	حنبكة (عبد الرحمن حسن)	كواشف زيوف فى المذاهب المعاصرة– دار القلم– الطبعة الثانية ١٤١٢هـ – ١٩٩١م.

م	اسم المؤلف	اسم المرجع
١٠	الخبيصى (عبيد الله بن فضل)	شرح الخبيصى على متن المنطق- محمد على صبيح- الرابعة ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.
١١	صليبا (د/ جميل) علم النفس	دار الكتاب اللبنانى بيروت- الثالثة ١٩٨١م.
١٢	عباس (د/ راوية عبد المنعم)	تاريخ الفن وفلسفة الوعى الجم المعرفة الجامعية - طبعة ٩٩٨
١٣	الرازى (أبو بكر زكريا)	رسائل فلسفية ترجمة ك دار الأفاق الجديدة - بيروت - الثانية ١٩٧٧م.
١٤	الصعيدى (عبد المتعال)	المنطق المنظم فى شرح الملوى السلم- محمد على صبيح.
١٥	عبد الرحيم (د/ أمينة محمد)	كتاب الضوء - الأنجلوا المص طبعة ١٩٦٣م.
١٦	الغزالى (محمد بن محمد بن أحمد الطوسى)	إحياء علوم الدين- دار إحياء العربية.
١٧	القزوينى (نجم الدين على بن عمر بن على)	شرح الرسالة الشمسية- مكتبة ا التجارية- الطبعة الأو ١٢٦٩هـ- ١٩٥٠م.
١٨	المليجى (د / حلمى)	علم النفس المعاصر-دار الجامعية. طبعة ١٩٨٤م.

م	اسم المؤلف	اسم المرجع
١٩	مدكور (د /إبراهيم)	فى الفلسفة الإسلامية منـــهج وتطبيقـه - دار المعارف - الطبعة الثالثة .
٢٠	مطر (د / أميرة حلمى)	مقدمة فى علم الجمال وفلســفة الفــن- دارغريب - طبعة ١٩٩٨م.
٢١	الأندلس (أبو القاسم صاعد بـــن أحمد)	طبقات الأمم -مطبعة السعادة.
٢٢	الأنصارى (الشيخ زكريا)	شرح ايساغوجى فى علم المنطق-محمد على صبيح .
٢٣	نجاتى (د / محمد عثمان)	القرآن وعلم النفس - دار الشـــروق - الطبعة السادسة ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.